



المملكة العربية السعودية

وزارة التعليم العالي

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المعهد العالي للقضاء

قسم الفقه المقارن

دراسة المسائل الخلافية في كتاب
"مراقب الإجماع" للإمام ابن حزم
من أول باب: "العدد" إلى نهاية باب:
"اختلاف الزوجين في متاع البيت"

(بحث تكميلي مقدم لنيل درجة الماجستير في الفقه المقارن)

إعداد الطالب :

عبد العزيز بن علي بن محمد بن نوح

المرشد العلمي :

فضيلة الشيخ الدكتور /

عبد الرحمن بن عبد الله السند "حفظه الله"

الأستاذ المشارك بالمعهد العالي للقضاء

للعام الجامعي

١٤٣١هـ / ١٤٣٢هـ





٢٥٤/٢٨
د ع د

254.28

ن ع د

دراسة المسائل الخلافية في كتاب
"مراتب الإجماع" للإمام ابن حزم
من أول باب: "العدد" إلى نهاية باب:
"اختلاف الزوجين في متاع البيت"

(بحث تكميلي مقدم لنيل درجة الماجستير في الفقه المقارن)

إعداد الطالب :

عبد العزيز بن علي بن محمد بن نوح



المرشد العلمي :

فضيلة الشيخ الدكتور/

عبد الرحمن بن عبد الله السند "حفظه الله"

الأستاذ المشارك بالمعهد العالي للقضاء

العام الجامعي

١٤٣١هـ / ١٤٣٢هـ

المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ} (١)

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} (٢)

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} (٣)، أما بعد:

فإن من أعظم نعم الله على العباد نعمة العقل، ومزية الفقه، فبهما أكرم الله الإنسان وفضله على بقية المخلوقات، وجعل الناس في ذلك متفاوتين.

ومن كمال فضل الله على العبد، أن يهبه عقلاً راجحاً، و فقهاً في دينه. قال صلى الله عليه وسلم:

(من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) (٤)، وإن من الفقه في الدين معرفة مسائله الدقيقة، وتحقيق أقوال أهل العلم فيها، وتوثيقها، والرجوع لأصولها، فهم - رحمهم الله - قاموا بجهود عظيمة، وبذلوا أعمارهم، وأوقاتهم، لبيان العلم الشرعي، فأصاب منهم من أصاب، وأخطأ

(١) سورة آل عمران الآية : (١٠٢) .

(٢) سورة النساء الآية : (١) .

(٣) سورة الأحزاب الآيات : (٧٠ - ٧١) .

(٤) رواه البخاري: ٢٥/١ في كتاب: العلم . فصل: من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين . ط المكتبة

الإسلامية، استانبول ١٩٨١ م ، ومسلم: ٦٦/١٣ شرح النووي ط مكتبة دار الباز ١٤١١ هـ كتاب: الإمارة ، باب : فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه . برقم (١٠٣٧) .

من أخطأ، وتوسع من توسع، ونحسب أن ذلك كله سعيًا منهم في الوصول إلى الحق، وخدمة دين الله رجاء ثوابه وَجَلَّالَهُ.

ومن حقهم علينا أن نبذل أعمارنا في تحقيق علمهم، وتوثيق أقوالهم، خدمة لعلمهم، وإسهاماً في إكمال ما بدؤوه.

وحيث إن من لوازم اجتياز مرحلة الماجستير بالمعهد العالي للقضاء، إعداد بحث تكميلي يُعنى بدراسة فقهية مقارنة، ولما ارتضى قسم الفقه المقارن بالمعهد دراسة كتاب الإمام "أبي محمد علي بن سعيد بن حزم" الموسوم "بمراتب الإجماع" من ناحية دراسة الخلافات التي ذكرها ابن حزم في هذا الكتاب، وكان نصيبي من ذلك دراسة الخلافات التي ذكرها في الأبواب التالية والمتتالية:

(١- العدد، ٢- الاستبراء، ٣- بقية من العدد، ٤- كتاب الرضاع والنفقات والحضانة، ٥- اللعان، ٦- الظهار، ٧- اختلاف الزوجين في متاع البيت) وعنونت البحث بـ
(دراسة المسائل الخلافية في كتاب "مراتب الإجماع" للإمام ابن حزم من أول باب "العدد" إلى نهاية باب "اختلاف الزوجين في متاع البيت")

أهمية الموضوع:

تتجلى أهمية الموضوع فيما يلي:

١ - الموضوع يشتمل على دراسة المسائل الخلافية التي ذكرها ابن حزم في هذه الأبواب المهمة التي لها مكانتها وأهميتها في الشريعة، وخاصة أن هذه المواضيع تتضح الحاجة لها في هذا العصر، كونها من المواضيع الاجتماعية المرتبطة بفقه الأسرة الذي له ممارسة مستمرة من أفراد المجتمع.

٢ - لاشك أن البحث في المسائل المختلف فيها بين أهل العلم من الأهمية بمكان، وذلك لتحرير المسائل، ومعرفة الأقوال، وبيان الراجح منها.

٣- البحث في المسائل المختلف فيها بين العلماء فيه فوائد جمّة وممار واضح، منها بيان سعة الشريعة، ومعرفة ظروف وأسباب الخلاف بين العلماء عبر العصور، وغير ذلك من الثمار والتي سيأتي ذكرها في ثنايا البحث.

٤- الاطلاع على مدارس فقهية جديدة تتمثل في دراسة كتاب ينتهج مؤلفه المذهب الظاهري، وهو من المذاهب التي لم يعتني بدراستها في المراحل العلمية لطلبة العلم في المملكة بالشكل المطلوب.

أسباب اختيار الموضوع:

تكمن الأسباب فيما يلي:

١- إفادة نفسي بطرّق أبواب فقهية جديدة.

٢- إتمام مشروع دراسة هذا الكتاب المهم لتقديم مادة علمية قيّمة للمكتبة الإسلامية وروادها.

٣- إفادة نفسي بمعرفة منهج العلماء في المسائل الخلافية.

الدراسات السابقة:

من خلال البحث والاطلاع والاستقصاء في فهارس المكتبات العامة والخاصة، إضافة إلى البحث في دور النشر بمدينة الرياض ومحركات البحث على شبكة (الإنترنت)، لم أجد من تناول أو طرح الموضوع الذي أنا بصددته، وهو المسائل الخلافية في كتاب "مراتب الإجماع" لابن حزم، خاصة في الأبواب المكلف بها، ويشار هنا أن موضوع بحثي يأتي من ضمن مشروع مبارك لقسم الفقه المقارن بالمعهد العالي للقضاء لدراسة المسائل الخلافية في كتاب "مراتب الإجماع" للإمام ابن حزم رحمه الله، اشترك فيه جملة من طلاب المعهد، وتم تقسيم أبواب الكتاب فيما بينهم، فليس هناك من تناول موضوع هذا الكتاب إلا ما أشرت إليه من بحوث الطلاب المشاركين في المشروع، وهناك كتاب اشتهر عن شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وهو الكتاب الموسوم "بنقد مراتب الإجماع"، في حين أنه لم يلتزم فيه باستيعاب كل المسائل، مع الإحاطة بأن هناك من كتب في إجماعات الفقهاء ولكنه لا يذكر خلاف الفقهاء، إنما حديثهم عن الإجماع فقط، مما هو خارج عما نحن بصددته.

٣- البحث في المسائل المختلف فيها بين العلماء فيه فوائد جمّة وثمار واضحة، منها بيان سعة الشريعة، ومعرفة ظروف وأسباب الخلاف بين العلماء عبر العصور، وغير ذلك من الثمار والتي سيأتي ذكرها في ثنايا البحث.

٤- الاطلاع على مدارس فقهية جديدة تتمثل في دراسة كتاب ينتهج مؤلفه المذهب الظاهري، وهو من المذاهب التي لم يعتني بدراستها في المراحل العلمية لطلبة العلم في المملكة بالشكل المطلوب.

أسباب اختيار الموضوع:

تكمن الأسباب فيما يلي:

١- إفادة نفسي بطرّق أبواب فقهية جديدة.

٢- إتمام مشروع دراسة هذا الكتاب المهم لتقديم مادة علمية قيّمة للمكتبة الإسلامية وروادها.

٣- إفادة نفسي بمعرفة منهج العلماء في المسائل الخلافية.

الدراسات السابقة:

من خلال البحث والاطلاع والاستقصاء في فهارس المكتبات العامة والخاصة، إضافة إلى البحث في دور النشر بمدينة الرياض ومحركات البحث على شبكة (الإنترنت)، لم أجد من تناول أو طرح الموضوع الذي أنا بصددده، وهو المسائل الخلافية في كتاب "مراتب الإجماع" لابن حزم، خاصة في الأبواب المكلف بها، ويشار هنا أن موضوع بحثي يأتي من ضمن مشروع مبارك لقسم الفقه المقارن بالمعهد العالي للقضاء لدراسة المسائل الخلافية في كتاب "مراتب الإجماع" للإمام ابن حزم رحمه الله، اشترك فيه جملة من طلاب المعهد، وتم تقسيم أبواب الكتاب فيما بينهم، فليس هناك من تناول موضوع هذا الكتاب إلا ما أشرت إليه من بحوث الطلاب المشاركين في المشروع، وهناك كتاب اشتهر عن شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - وهو الكتاب الموسوم "بنقد مراتب الإجماع"، في حين أنه لم يلتزم فيه باستيعاب كل المسائل، مع الإحاطة بأن هناك من كتب في إجماعات الفقهاء ولكنه لا يذكر خلاف الفقهاء، إنما حديثهم عن الإجماع فقط، مما هو خارج عما نحن بصددده.

منهج البحث:

سوف أقوم - بإذن الله تعالى - في هذا البحث بما يلي:

- ١- أصور المسألة المراد بحثها تصويراً دقيقاً قبل بيان حكمها: ليتضح المقصود من دراستها.
- ٢- إذا كانت المسألة من مسائل الخلاف، فأتبع ما يلي:
 - أ- أحرر محل الخلاف إذا كانت بعض صور المسألة محل خلاف، وبعضها محل اتفاق.
 - ب- أذكر الأقوال في المسألة، وأبين من قال بها من أهل العلم، ويكون عرض الخلاف حسب الاتجاهات الفقهية.
 - ت- أقتصر على المذاهب المعتبرة، مع العناية بذكر ما تيسر الوقوف عليه من أقوال السلف الصالح، وإذا لم أقف على المسألة في مذهب ما فسأسلك بها مسلك التخريج.
 - ث- أوثق الأقوال من مصادرها الأصلية.
 - ج- أستقصي أدلة الأقوال مع بيان وجه الدلالة، وأذكر ما يرد عليها من مناقشات، وما يجاب به عنها، وأذكر ذلك بعد الدليل مباشرة.
 - ح- أرجح مع بيان سببه، وأذكر ثمرة الخلاف إن وجدت.
- ٣- أعتمد على أمهات المصادر والمراجع الأصلية في التحرير والتوثيق والتخريج والجمع.
- ٤- أركز على موضوع البحث وأتجنب الاستطراد.
- ٥- أعطني بضرب الأمثلة خاصة الواقعية - إن وجدت -.
- ٦- أتجنب ذكر الأقوال الشاذة.
- ٧- أعطني بدراسة ما جدّ من القضايا مما له صلة واضحة بالبحث - إن وجدت -.
- ٨- أرقم الآيات وأبين سورها مضبوطة الشكل.
- ٩- أخرج الأحاديث من مصادرها الأصلية وأثبت الكتاب والباب والجزء والصفحة، وأبين ما ذكره أهل الشأن في درجتها - إن لم تكن في الصحيحين أو أحدهما -، فإن كانت كذلك فأكتفي حينئذ بتخريجها منها.
- ١٠- أخرج الآثار من مصادرها الأصلية، وأحكم عليها.

١١- أعرف بالمصطلحات من كتب الفن الذي يتبعه المصطلح، أو من كتب المصطلحات المعتمدة.

١٢- أوثق المعاني من معاجم اللغة المعتمدة وتكون الإحالة عليها بالمادة والجزء والصفحة.

١٣- أعتني بقواعد اللغة العربية والإملاء، وعلامات الترقيم، ومنها علامات التنصيص للآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة والآثار ولأقوال العلماء، وأميز العلامات والأقواس، فيكون لكل منها علامته الخاصة.

١٤- تكون الخاتمة متضمنة أهم النتائج والتوصيات التي أراها.

١٥- أترجم للأعلام غير المشهورين بإيجاز، بذكر اسم العلم ونسبه وتاريخ وفاته ومذهبه العقدي والفقهية، والعلم الذي اشتهر به، وأهم مؤلفاته ومصادر ترجمته.

١٦- إذا وجد في البحث ذكر أماكن أو قبائل أو فرق أو أشعار أو غير ذلك فأضع له فهرس خاصة، إن كان لها من العدد ما يستدعي ذلك.

١٧- أتبع البحث بالفهارس الفنية المتعارف عليها، وهي:

فهرس الآيات القرآنية.

فهرس الأحاديث والآثار.

فهرس الأعلام.

فهرس المراجع والمصادر.

فهرس الموضوعات.

تقسيمات البحث:

يتكون من مقدمة، وتمهيد، وستة فصول، وخاتمة، يليها فهرس البحث.

المقدمة، وتشتمل على:

١- الاستهلال.

٢- أهمية الموضوع.

٣- أسباب اختيار الموضوع.

٤- الدراسات السابقة.

٥- منهج البحث.

٦- تقسيمات البحث.

التمهيد:

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: ترجمة المؤلف:

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: اسمه، ونسبه، ونشأته.

المطلب الثاني: عقيدته، ومذهبه.

المطلب الثالث: أشياخه، وتلاميذه.

المطلب الرابع: حياته، ومؤلفاته.

المطلب الخامس: ما قيل عنه.

المطلب السادس: وفاته.

المبحث الثاني: التعريف بالكتاب:

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: اسم الكتاب وأهميته.

المطلب الثاني: كلام العلماء عن الكتاب.

المطلب الثالث: منهج المؤلف في كتابه.

المبحث الثالث: التعريف بالمذهب الظاهري:

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: مؤسسه.

المطلب الثاني: أصوله.

المطلب الثالث: أعلامه، وأبرز كتبه.

المطلب الرابع: خلاف الظاهرية، ومدى اعتباره.

المبحث الرابع: التعريف بالخلاف الفقهي وجذوره وأسبابه، ومدى مشروعيته وشروطه وآدابه ومراتبه، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف بالخلاف الفقهي في اللغة والاصطلاح .

المطلب الثاني: جذوره وأسبابه.

المطلب الثالث: مشروعيته.

المطلب الرابع: شروطه وآدابه.

المطلب الخامس: مراتبه.

الفصل الأول

الخلافاً التي ذكرها المؤلف في باب "العدد"

وفيه تسعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف العدد.

المبحث الثاني: عدة الطلاق من الإيلاء. (١)

المبحث الثالث: خطبة من آل منها فبانت في عدتها. (٢)

المبحث الرابع: أجل من لم تستوعب الصفات التي ذكرها ابن حزم (٣)

المبحث الخامس: انقضاء عدة من لم تستكمل ثلاثة أطهار وثلاث حيض (٤)

المبحث السادس: عدة المطلقة الممسوسة التي لم تحض قط (٥)

المبحث السابع: كيفية استحقاق أم الولد للعتق حال موت سيدها (٦)

(١) قال ابن حزم رحمه الله: (واختلفوا في الطلاق من الإيلاء أفيه عدة ؟ .. مراتب الإجماع ص ٧٦.

(٢) قال رحمه الله: (... وهل للذي آل منها فبانت منه أن يخطبها في عدتها أم لا ... ص ٧٦.

(٣) قال رحمه الله: (وأجمعوا أن أجل الحرة المسلمة المطلقة التي ليست حاملاً ولا مستترية ولا مستحاضة ولا ملاعنة ولا مختلعة أيام الحيض وأيام الأطهار وكان بين حيضتيها عدد لا يبلغ أن يكون شهراً ، فإن عدتها ثلاثة قروء . واختلفوا في من لم تستوعب الصفات التي ذكرنا... ص ٧٦.

(٤) قال رحمه الله: (... واتفقوا أن من استكملت ثلاثة أطهار وثلاث حيض فاعتسلت ...) إلى قوله: (... واختلفوا فيما دون ذلك) ص ٧٦.

(٥) قال رحمه الله: (... ثم اختلفوا وتبدئ الإقراء أو تعد ما مضى لها ...) ص ٧٧.

(٦) قال رحمه الله: (... واتفقوا أن أم الولد إذا مات سيدها وقد استحققت الحرية بموته على اختلافهم في كيفية استحقاقها العتق ...) ص ٧٧.

المبحث الثامن: حكم أم الولد إذا أعتقها سيدها في صحته وهو جائز عتقه، فاعتدت ثلاثة

قروء إن كانت ممن تحيض، أو ثلاثة أشهر إن كانت ممن لا تحيض (١)

المبحث التاسع: وجوب الإحداد على شي يمكن ضمه (٢)

الفصل الثاني

الخلافاً التي ذكرها المؤلف في باب "الاستبراء"

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: في تعريف الاستبراء وحكمه.

المبحث الثاني: حكم الاستبراء من الجواري (٣)

الفصل الثالث:

الخلافاً التي ذكرها المؤلف في باب "الرضاع والنفقات والحضانة"

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الرضاع والنفقات والحضانة.

المبحث الثاني: الرضاع المحرم (٤)

المبحث الثالث: حكم نفقة الأغنياء على الفقراء من ذوي الرحم المورثين والجيران (٥)

المبحث الرابع: الأحق بحضانة الصغير والصغيرة (٦)

(١) قال رحمه الله: (...) واتفقوا أنه إن اعتقها في صحته وهو جائز عتقه فاعتدت (...) إلى أن قال: (...) ولا سبيل إلى اتفاق على إيجاب شي عليها إذ في الناس من لا يرى عليها .. ص ٧٧.

(٢) قال رحمه الله: (...) ولم يتفقوا في وجوب الإحداد على شيء يمكن ضمه ... ص ٧٨.

(٣) قال رحمه الله: (...) ولا سبيل إلى اتفاق موجب في ذلك شيئاً، إذ في الناس من لا يرى الاستبراء في الجواري أصلاً .. ص ٧٩.

(٤) قال رحمه الله: (...) قد ذكرنا ما اختلفوا عليه من الرضاع المحرم .. ص ٧٩.

(٥) قال رحمه الله: (...) واختلفوا في الفقراء من ذوي الرحم المورثين والجيران .. ص ٨٠.

(٦) قال رحمه الله: (...) ولم يتفقوا فيمن هو حق في حضانة الصغير والصغيرة .. ص ٨٠.

الفصل الرابع

الخلافات التي ذكرها المؤلف في باب "اللعان"

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تعريف اللعان وحكمه.

المبحث الثاني: فيمن قذف الزوجة وهي حامل ونفى حملها (١)

الفصل الخامس

الخلافات التي ذكرها المؤلف في باب "الظهار"

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تعريف الظهار وحكمه.

المبحث الثاني: الظهار على شي يمكن ضبطه (٢)

المبحث الثالث: إن وجد رقبة قبل الصوم أو قبل تمامه (٣)

الفصل السادس

الخلافات التي ذكرها المؤلف في باب "اختلاف الزوجين في متاع البيت":

المتاع من غير الثياب (٤).

الخاتمة:

وتشتمل على نتائج الدراسة .

فهارس البحث: وتشتمل على:

❖ فهرس الآيات القرآنية.

❖ فهرس الأحاديث النبوية.

❖ فهرس الآثار.

(١) قال رحمه الله: (..) واختلفوا فيمن قذف زوجته كما ذكرنا وهي حامل (..) ص ٨١

(٢) قال رحمه الله: (ما اتفقوا في كيفية الظهار على شي يمكن ضبطه لأن قتادة والحسن والزهري وغيرهم يقولون (..) ص ٨١.

(٣) قال رحمه الله: (واختلفوا إن وجد رقبة قبل الصوم أو قبل تمامه (..) ص ٨٢.

(٤) قال رحمه الله: (واختلفوا فيما سوى ذلك بما لا سبيل إلى ضم إجماع فيه (..) ص ٨٢.

❖ فهرس الأعلام.

❖ فهرس المصادر والمراجع.

❖ فهرس الموضوعات.

ثم إنني اختتم هذه المقدمة، بأعظم الشكر وأوفره لله عز وجل، على ما من به عليّ من إتمام وتيسير لهذا البحث، ثم أقدم دعواتي الخالصة وشكري إلى والديّ "حفظهما الله"، وأطال في عمرهما على طاعته، على دعواتهما الخالصة لي والدعم المعنوي الكبير الذي خصاني به، والشكر موصول إلى زوجتي وأبنائي، على دعمهم لي وتميئة الأجواء المناسبة لإتمام هذا البحث، كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى فضيلة الشيخ الدكتور/ عبد الرحمن بن عبد الله السند، عضو هيئة التدريس في المعهد العالي للقضاء والمشرف على البحث، على ما لقيته منه من اهتمام ودعم وتوجيهات، كان لها أبلغ الأثر في إفادتي شخصياً، ثم في إخراج هذا البحث بحلة علمية أرجو أن تكون مفيدة لكل من قرأه، سائلاً الله عز وجل أن يجعل ذلك في ميزان حسنات الجميع.

و الله الموفق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

❖ فهرس الأعلام.

❖ فهرس المصادر والمراجع.

❖ فهرس الموضوعات.

ثم إنني اختتم هذه المقدمة، بأعظم الشكر وأوفره لله عز وجل، على ما من به عليّ من إتمام وتيسير لهذا البحث، ثم أقدم دعواتي الخالصة وشكري إلى والديّ "حفظهما الله"، وأطال في عمرهما على طاعته، على دعواتهما الخالصة لي والدعم المعنوي الكبير الذي خصاني به، والشكر موصول إلى زوجتي وأبنائي، على دعمهم لي وتهيئة الأجواء المناسبة لإتمام هذا البحث، كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى فضيلة الشيخ الدكتور/ عبد الرحمن بن عبد الله السند، عضو هيئة التدريس في المعهد العالي للقضاء والمشرف على البحث، على ما لقيته منه من اهتمام ودعم وتوجيهات، كان لها أبلغ الأثر في إفادتي شخصياً، ثم في إخراج هذا البحث بحلة علمية أرجو أن تكون مفيدة لكل من قرأه، سائلاً الله عز وجل أن يجعل ذلك في ميزان حسنات الجميع.

و الله الموفق، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد.

وفيه أربعة مباحث

المبحث الأول: ترجمة المؤلف (١)

وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: اسمه، ونسبه، ونشأته: -.

هو الإمام الحافظ العلامة، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معد بن سفيان بن يزيد، مولى يزيد بن أبي سفيان صخر بن حرب الأموي، أصل جده من فارس، وجده خلف أول من دخل الأندلس من أسرته في صحبة الأمير عبد الرحمن الداخل، ومن ذلك نعرف أن مقر هذه الأسرة كان بالشام بعد مشاركة يزيد أصل هذه الأسرة في الفتوحات الإسلامية بها، ولما خرج عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس خرج معه جدهم خلف بن معدان^(٢)، وقد بدأت هذه الأسرة تحتل مكانها الرفيع كواحدة من كرائم العائلات بالأندلس في عهد الحكم المستنصر، وكانت بلدهم قرطبة، فولد ابن حزم بها في رمضان، سنة ٣٨٣هـ ونشأ في بيت له سلطان وثراء وجاه، فقد كان هو وأبوه أحمد بن حزم من وزراء الحاجب المنصور بن أبي عامر من أعظم حكام الأندلس، فارتاح باله من كد العيش والسعي وراء الرزق، وتفرغ لتحصيل العلوم والفنون، فكتب طوق الحمامة في الخامسة والعشرين من عمره، وقد رزق ذكاءً مفرطاً وذهناً سيالاً وقد ورث عن أبيه مكتبة ذاخرة بالنفائس، اشتغل في شبابه بالوزارة في عهد «المظفر بن المنصور العامري» ثم لما تولى الخلافة هشام المؤيد تغير به الحال بوفاة أبيه، فاضطرت المحن والشدائد أسرته إلى الانتقال من قرطبة

(١) ترجمة ابن حزم في جذوة المقتبس، ٢٩٠ (بغية الملتبس رقم: ١٢٠٤) والذخيرة ١/١٦٧، وطبقات صاعد: ٨٦ والصلة: ٣٩٥ ومطمح الأنفس: ٢٧٩، وتاريخ الحكماء: ١٥٦ وتذكرة الحفاظ: ١١٤٦ وغير الذهبي ٣: ٢٣٩ وسير الذهبي ١٨: ١٨٤، وشذرات الذهب ٣: ٢٩٩، وطبقات الحفاظ: ٤٣٦، ٤٣٧، والنفح ٢: ٧٧، ٣: ٥٥٥، والنجوم الزاهرة ٥: ٧٥، ولسان الميزان ٤: ١٩٨، هدية العارفين: ١/ ٦٩٠، ٦٩١.

(٢) تذكرة الحفاظ لحافظ الذهبي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/٣٢٥ - دار الصياد - بيروت.

حاضرة الأندلس إلى "المرية"^(١)، وفي هذه الفترة آل الأمر في شأن الخلافة إلى العلويين، فكان الحكم لابن حمود، ولما خرج عليه المرتضى عبد الرحمن بن محمد من الأمويين، ناصرته ابن حزم وعاونته، فسار معه في جيشه الذي أراد به الاستيلاء على غرناطة، ولكنه اغتيل قبل أن يتم له ما أراد، فأسر ابن حزم ثم فك أسره عام ٤٠٩ هـ^(٢)، فعاد بعد ذلك إلى قرطبة منصرفاً إلى العلم ومدافعاً عن الإسلام بإبطال ما كان يثيره اليهود والنصارى من افتراءات ضد الإسلام وأهله.

ثم إنه كان يرتحل ويطوف ببلاد الأندلس، ثم استقر به الأمر في أشبيلية أمداً في مدة حكم المعتضد بن عباد، ولما بلغ المعتضد في استبداده واجترائه على الطعن في الأمويين؛ هاجمه ابن حزم في غير هوادة، فأحرق المعتضد كتبه إيذاء له وانتقاماً منه، وإرضاء لبعض العلماء الذين ضاقت صدورهم بعلمه، ويظهر أن الإحراق لم يكن لكل الكتب ولم يكن لكل النسخ، فإن تلاميذه في كل مكان كانوا يستحفظون كتبه وينسخونها^(٣).

وقد تابعت المطاردة بابن حزم إلى أن انتهى به المقام في بلدة "لبلة"^(٤) من بلاد الأندلس وبها توفي عام ٤٥٦ هـ.

وقد حظي هذا العالم في حياته بكثير من الصفات وعديد من المواهب، مما مكنه من بلوغ المكانة العالية في مجالات العلم المتنوعة والمعارف المختلفة، فقد كان رحمه الله صاحب حافظة قوية مستوعبة، يسرت له حفظ السنة النبوية، فارتفع بذلك إلى منزلة الحفاظ الكبار، وكان له مع هذه الحافظة الواعية بديهة حاضرة، فتجيء إليه المعاني في وقت الحاجة إليها، كما كان مع ذلك عميق التفكير يغوص بفكره في الحقائق والمعاني، وكان هذا العالم مخلصاً في طلب العلم

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي ٢٥٠/١٢ - دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ - ١٤١١ هـ.

(٢) ابن حزم - حياته وعصره - لمحمد أبو زهرة ص ٤٧ مطبعة دار الفكر - القاهرة.

(٣) جذوة المقتبس من أخبار ملوك الأندلس ص ٩٩. الدار المصرية للنشر والترجمة - القاهرة.

(٤) معجم البلدان ١٠/٥.

وتبليغه، فهو ينطق بما يعتقد أنه الحق، بل لقد كان شديداً في إعلان رأيه بالقول والقلم، وفي

ذلك يقول عنه بعض علماء عصره: إنه علم العلم، ولم يعلم سياسة العلم^(١).

ومع أنه كان ذا حدة ظهرت كثيراً في جدله، فإنه لم يغفل عن ذكر سببها والكلام عنها، فقال: "لقد أصابني علة شديدة ولدت في ربواً في الطحال شديداً، فولد ذلك علي من الضجر، وضيق الخلق، وقلة الصبر والنزق، أمراً جاشت نفسي فيه إذ أنكرت تبدل خلقي، واشتد عجيبي من مفارقتي لطبيعي، وصح عندي أن الطحال موضع الفرح، وإذا فسد تولد ضده"^(٢)، وفي هذا الكلام من ابن حزم توضيح بين أسباب ضعفه النفسي، فيصف نفسه بالنزق والضجر، ولا يضمن عليها. يمثل ما يصفه به مخالفه، وفضلاً عما ذكره في حق نفسه، وبينه من أسباب ضعفه النفسي، فإن ما لاقاه من ظلم الأمراء بإيعاز العلماء، أحدث في نفسه مرارة شديدة جعلته ينقم على بعض العلماء لكيدهم له عند الأمراء، فكان ذلك أيضاً من أسباب حدته، ولقد كان لما طبع عليه هذا العالم من الصفات الطيبة، وما وهبه الله تعالى من الكفاءات العلمية والقدرات العقلية أنه كان حامل فنون عديدة، وذا بصر بعلوم كثيرة، من حديث وفقه وجدل ونسب، وما يتعلق بأذيال الأدب، مع المشاركة في أنواع من العلوم القديمة كالمنطق والفلسفة، وله في بعض الفنون كتب ومصنفات أشهرها الفصل بين أهل الآراء والنحل، وكتاب الصادع والرادع على من كفر من أهل التأويل من المسلمين، وكتاب الجامع في صحيح الحديث باختصار الأسانيد، وكتاب الإمامة والسياسة، وكتاب أخلاق النفس، والإيصال إلى فهم كتاب الخصال، وكتاب كشف الألباب ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس، وكتاب الأحكام في أصول الأحكام، وكتاب المحلى، وقد شرح فيه المذهب الظاهري في جميع أبواب الفقه، وغير هذه الكتب كثير، فقد قال ابنه الفضل^(٣):

(١) سير أعلام النبلاء للحفظ الذهبي ١٨٧/١٨ وما بعدها الناشر دار الرسالة - بيروت -

(٢) لأخلاق والسير في مداواة النفوس لابن حزم، الناشر: دار الآفاق الجديدة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ -

(٣) أبو رافع الفضل بن علي بن حزم المتوفى سنة ٤٧٩هـ الذي أكمل كتاب المحلى لابن حزم، انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ - ١٢٨/٣،

وسير أعلام النبلاء ١٩ / ١٢٠.

اجتمع عندي بخط أبي من تواليفه نحو أربعمئة مجلد تشتمل على قريب من نحو ثمانين ألف ورقة. (١)

المطلب الثاني: عقيدته، ومذهبه: -

أولاً: عقيدته: -

وافق الإمام ابن حزم العقيدة السلفية في بعض الأمور من موضوعات توحيد الأسماء والصفات، وخالفهم في أخرى فتوافق مع الجهمية، وكل ذلك كان باجتهاده الخاص، وله ردود كثيرة على، اليهود والنصارى وعلى الصوفية والخوارج والشيعة، والأمر الذي تحير فيه العلماء أن ابن حزم على الرغم من أنه كان ظاهرياً في الفروع لجأ إلى تأويل النصوص في أمور العقيدة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "و أبو محمد بن حزم — مع معرفته بالحديث، وانتصاره لطريقة "داود" (٢) وأمثاله من نفاة القياس أصحاب الظاهر — قد بالغ في نفي الصفات، وردها إلى العلم مع أنه لا يثبت علماً هو صفة، ويزعم أن أسماء الله كالعليم والقدير، ونحوهما لا تدل على العلم، والقدرة، وينتسب إلى الإمام أحمد وأمثاله من أئمة السنة، ويدعي أن قوله هو قول أهل السنة والحديث، ويذم الأشعري وأصحابه ذماً عظيماً، ويدعي أنهم خرجوا عن مذهب السنة والحديث في الصفات، ومن المعلوم الذي لا يمكن مدافعة، أن مذهب الأشعري وأصحابه في مسائل الصفات أقرب إلى مذهب أهل السنة والحديث من مذهب ابن حزم وأمثاله في ذلك" (٣) وقال في منهاج السنة: وزعم ابن حزم أن أسماء الله تعالى الحسنى لا تدل على المعاني، فلا يدل عليم على علم ولا قدير على قدرة بل هي أعلام محضة! وهذا يشبه قول من يقول: بأنها تقال بالاشتراك اللفظي، وأصل غلط هؤلاء شيئين: إما نفي الصفات والغلو في نفي التشبيه، وإما ظن ثبوت الكليات المشتركة في الخارج، فالأول هو مأخذ الجهمية ومن وافقهم على نفي الصفات، قالوا: إذا قلنا عليم يدل على علم،

(١) العبر في خير من غير للحافظ الذهبي ٢٤٣/٣ الناشر دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) ستأتي ترجمته مفصلة في المبحث الثالث.

(٣) درء تعارض العقل والنقل، لشيخ الإسلام ابن تيمية ٢٤٩/٥ دار الكنوز الأدبية، الرياض.

وقدير يدل على قدرة، لزم من إثبات الأسماء إثبات الصفات، وهذا مأخذ ابن حزم فإنه من نفاة الصفات، مع تعظيمه للحديث والسنة والإمام أحمد، ودعواه أن الذي يقوله في ذلك هو مذهب أحمد وغيره، غلطه في ذلك بسبب أنه أخذ أشياء من أقوال الفلاسفة والمعتزلة عن بعض شيوخه، ولم يتفق له من يبين له خطأهم، ونقل المنطق بالإسناد عن متى الترجمان، وكذلك قالوا: إذا قلنا: موجود وموجود، وحيّ وحيّ، لزم التشبيه، فهذا أصل غلط هؤلاء^(١).

وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: والعجب كل العجب منه أنه كان ظاهرياً حائراً في الفروع، لا يقول: بشئ من القياس لا الجلي ولا غيره، وهذا الذي وضعه عند العلماء، وأدخل عليه خطأً كبيراً في نظره وتصرفه وكان مع هذا من أشد الناس تأويلاً في باب الأصول، وآيات الصفات وأحاديث الصفات. قال ابن عقيل: وكان على مذهب مرجئة المعتزلة وينفي خلود الكفار في النار، ويقول: دوام العقاب في حق من لا يجوز عليه التشفي لا وجه له، مع ما وصف الله به نفسه من الرحمة، ويتأول قوله تعالى: { خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا }^(٢) أي أبداً من الآباد^(٣).

وقد علل ابن عبد الهادي^(٤) ذلك: بأن ابن حزم كان في صغره قد اشتغل في المنطق، والفلسفة، وأخذ المنطق عن محمد بن الحسن المذحجي، وأمعن في ذلك، فتقرر في ذهنه بهذا السبب معاني باطلة، ثم نظر في الكتاب والسنة، ووجد ما فيها من المعاني المخالفة لما تقرر في ذهنه، فصار في الحقيقة حائراً في تلك المعاني الموجودة في الكتاب والسنة، فروغ في ردها روغان الثعلب، فتارة يحمل اللفظ على غير معناه اللغوي، ومرة يحمل ويقول: هذا اللفظ لا

(١) منهاج السنة النبوية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ٥٨٣/٢ مؤسسة قرطبة - الرياض - ط ١.

(٢) سورة التوبة الآية: (١٠٠).

(٣) البداية والنهاية، لابن كثير ١١٣/١٢ مكتبة المعارف، بيروت.

(٤) محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن يوسف بن محمد بن قدامة المقدسي الجماعيلي حافظ للحديث، عارف بالأدب، من كبار الحنابلة. يقال له « ابن عبد الهادي » نسبة إلى جده الأعلى. أخذ عن ابن تيمية والذهبي وغيرهما. انظر الروابي بالوفيات ١١٣/٢، وذيل طبقات الحنابلة ١١٥/٥، والأعلام للزركلي ٣٢٦/٥.

معنى له أصلاً، بل هو بمترلة الأعلام، وتارة يرد ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، كرده الحديث المتفق على صحته في إطلاق لفظ الصفات، وقول الذي كان يلزم قراءة قل هو الله أحد لأنها صفة الرحمن عز وجل فأنا أحب أن أقرأ بها، ومرة يخالف إجماع المسلمين في إطلاق بعض الأسماء على الله عز وجل، وفي كلامه على اليهود والنصارى، ومذاهبهم، وتناقضهم فوائد كثيرة، وتخليط كثير، وهجوم عظيم، فإنه رد كثيراً من باطلهم بباطل مثله، كما رد على النصارى في التثليث ما يتضمن نفي الصفات (١).

هذه أقوال المتقدمين في عقيدة ابن حزم، أما المعاصرون:

فقد انتقدت اللجنة الدائمة للإفتاء بالمملكة العربية السعودية ظاهرية ابن حزم وعقيدته، حيث ورد في أحد ردودها: (وخطؤه في العقيدة بتأويل نصوص الأسماء والصفات أشد وأعظم) (٢)، وقال أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري — وهو من أبرز الدعاة للمذهب الظاهري المعاصرين عن ابن حزم: إنه غير موفق في كثير من مسائل الأسماء والصفات (٣).

ما نقلناه هنا يلقي الضوء على موافقة ابن حزم رحمه الله للمعتزلة في بعض جوانب المعتقد، فهو وإن كان ظاهرياً في الفروع إلا أنه قد خالف منهجه في الأصول.

ويعد هذا نورد خلاصة لدراسة علمية في اعتقاد ابن حزم في الإلهيات أعدها الدكتور أحمد بن ناصر الحمد وقدمها لجامعة أم القرى بمكة المكرمة (٤)، وهذه خلاصة نتيجة كما يلي:

١- يوافق ابن حزم المعتزلة في إثبات الأسماء مجردة فلا يشتق لله منها صفات.

٢- يرجع ابن حزم كثيراً من الصفات إلى الذات بعد إثبات ألفاظها الواردة، كالوجه، واليد، والعين، وغيرها.

٣- يؤول ابن حزم الصفات كالصورة، والأصابع، والساق، والاستواء، والنزول.

٤- يوافق السلف في إثبات الماهية لله، والنفس، والذات.

(١) طبقات علماء الحديث لابن عبد الهادي ٣/٣٤٩ مؤسسة الرسالة بيروت ط ٢ ١٤١٧ هـ .

(٢) فتاوى اللجنة الدائمة ٢٢٣/١٢ .

(٣) ابن حزم خلال ألف عام ١٥٣/٢ دار الغرب الإسلامي-بيروت- ط ١ عام ١٤٠٢ هـ .

(٤) ابن حزم وموقفه من إلهيات لأحمد بن ناصر الحمد ص ٤٧٣ وما بعدها، من منشورات جامعة أم القرى بمكة المكرمة- ط ١

١٤٠٦ هـ .

٥- يوافق السلف في إثبات الرؤية.

٦- يوافق السلف في إثبات كلام الله.

٧- يوافق السلف في غالب مباحث أفعال الله.

ثانياً: مذهبه:-

بدأ ابن حزم طلبه للعلم باستحفاظ القرآن الكريم، ثم رواية الحديث، وعلم اللسان، فبلغ في كل ذلك مرتبة عالية، ثم اتجه من بعد ذلك إلى الفقه، فدرسه على مذهب الإمام مالك؛ لأنه مذهب أهل الأندلس في ذلك الوقت، ولكنه كان مع دراسته للمذهب المالكي يتطلع إلى أن يكون حراً، يتخير من المذاهب الفقهية ولا يتقيد بمذهب، ولذلك انتقل من المذهب المالكي إلى المذهب الشافعي، فأعجبه تمسكه بالنصوص، واعتباره الفقه نصاً أو حملاً على النص، وشدة حملته على من أفتى بالاستحسان، ولكنه لم يلبث إلا قليلاً في الالتزام بالمذهب الشافعي، فتركه لما وجد أن الأدلة التي ساقها الشافعي لبطلان الاستحسان تصلح لإبطال القياس وكل وجوه الرأي أيضاً.

ثم بدا له أن يكون له منهج خاص وفقه مستقل، فاتجه إلى الأخذ بالظاهر، وشدد في ذلك، حتى أنه كان أشد من إمام المذهب الأول داود الأصفهاني^(١).

المطلب الثالث: أشياخه وتلاميذه:-

أولاً: شيوخه:-

تلقى الإمام ابن حزم العلم في صغره على أيدي النساء والجواري في بيته فتعلم منهن القراءة والكتابة وحفظ القرآن وعلومه، مما كان له أكبر الأثر في صقل نفسيته ورهافة حسه^(٢)، ثم انتقل بعد ذلك لتلقي العلم علي علماء أهل زمانه وقد أحصى له الأستاذ أحمد محمد شاكر محقق كتاب المحلى أربعة وعشرون شيخاً^(٣) منهم:

(١) لسان الميزان لابن حجر ٧٢٥/٤ ترجمة (٥٧٨٢) الناشر مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ط ٣- ١٤٠٦ هـ .

(٢) طوق الحمامة في الألفة و الآلاف لابن حزم ص ٤٧ الناشر دار عرفة -دمشق.

(٣) مقدمة كتاب المحلى تحقيق أحمد محمد شاكر دار إحياء التراث العربي -بيروت.

(١) أبو عمر أحمد بن محمد بن الجسور (ت ٤٠١ هـ)، أول شيخ سمعه ابن حزم قبل الأربعمائة، كان شيخا له في الفقه والحديث والتاريخ روى عنه موطأ الإمام مالك والمدونة له أيضا برواية سحنون، ومسند بن أبي شيبة، وفقه أبي عبيد القاسم بن سلام، ومسند عبد بن حميد، وقرأ عليه تاريخ الرسل والملوك لمحمد ابن جرير الطبري.

وابن الجسور هو: أحمد بن محمد بن أحمد بن سعيد بن الحباب بن الجسور الأموي مولاهم، القرطبي، يكنى أبا عمر، ويعرف بابن الجسور، محدث مكثّر، حافظ للحديث والرأي، عارف بأسماء الرجال، ولد سنة ٣١٩ هـ ومات في شهر ذي القعدة سنة ٤٠١ هـ، قال ابن حزم: هو أول شيخ سمعت منه قبل ٤٠٠ هـ (١).

(٢) يحيى بن مسعود بن وجه الجنة، صاحب قاسم بن أصبغ، فهو أعلى شيخ عنده (ت ٤٠٢ هـ).

ويحيى هو يحيى بن عبد الرحمن بن مسعود بن مسعود القرطبي، يكنى أبا بكر، ويعرف: بابن وجه الجنة، حدث عنه جماعة من العلماء. وروى عنه الإمام ابن عبد البر: ما خرجه محمد بن وضاح في الصلاة في النعلين، كان رجلا صالحا عادلا، كان يحترف صناعة الخرازين، ولد سنة (٣٠٤ هـ) ومات في شهر ذي الحجة سنة (٤٠٢ هـ).

(٣) حمام بن أحمد بن حمام القرطبي المحدث (ت ٤٢١ هـ) كما في المحلى (٤٥٢/٩)

(٤) محمد بن سعيد بن محمد بن عمر بن سعيد بن نبات الأموي (ت ٤٢٩ هـ) كما في المحلى (٣٤٨/١٠).

(٥) محمد بن الحسن المذحجي القرطبي المعروف بابن الكتاني، وكان شاعرا طبييا مات بعد (٤٠٠ هـ)، وكان شيخا في المنطق.

(٦) أحمد بن قاسم بن محمد بن قاسم بن أصبغ صاحب السنن القرطبي المحدث (ت ٤٣٠ هـ).

(٧) ويتزل إلى أن يروي عن ابن عمر بن عبد البر النمري، إمام عصره وفريد دهره (ت ٤٦٣ هـ) صاحب التصانيف، تدبج مع ابن حزم (تبادل وإياه الرواية).

(١) جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس للحميدي ص ٩٩ الدار المصرية للنشر والترجمة - القاهرة.

٨) أحمد بن عمر بن أنس العذري ابن الدلائي المري، المحدث المسند، تدبج معه ابن حزم يتبادل الرواية في التلمذة والمشيخة.

٩) أبو عبد الله بن دحون الفقيه، وهو الشيخ الذي قرأ عليه ابن حزم كتاب الموطأ في أول تلقيه العلم بعد حادثة الجنازة في المسجد التي ذكرها ياقوت في معجم البلدان ١٢ / ٢٤١ (١٠) مسعود بن سليمان بن مفلت الشنتريني القرطبي المعروف بأبي الخيار (ت ٤٢٦هـ) كان شيخاً له في الفقه والحديث وعلومه وعنه أخذ القول بالظاهر والدعوة إلى الاجتهاد ونبذ التقليد.

هذا وإن في "المحلى" مما له صلة بحياة ابن حزم أسماء طائفة من شيوخه، يروى عنهم الحديث والفقه والأدب، سوى ابن جصور، وابن وجه الجنة، وكلهم معروف مشهور، وبعضهم لا يعرف في تراجم الرجال أنه شيخ لابن حزم، أو لم يصرح هو بذلك في المحلى. وعلى الرغم من أن هؤلاء الشيوخ الذين أخذ عنهم ابن حزم الفقه المالكي، وهو المذهب السائد في عصره، إلا أنهم لم يؤثروا فيه للاقتصار على هذا المذهب دون غيره، فقد درس ابن حزم الفقه الشافعي من بطون الكتب فتأثر به، وكان في بداية حياته العلمية شافعيًا ثم ما لبث أن تحول عنه بتأثير شيخه أبي الخيار الذي كان ظاهري المذهب، فتنقل ابن حزم من فقيه يختار ما يراه صواباً إلى صاحب مذهب لا يتعدها، وهو الأخذ بظاهر النص. ومن المؤكد أن ابن حزم لم يقتصر على ما تلقاه من شيوخه، بل قرأ واجتهد وفحص، وكان يطلب العلم أنى وجده، وبذلك اجتمع له ذلك الاطلاع الواسع الذي دلت عليه كل مؤلفاته التي خلفها للأجيال من بعده.

ثانياً: تلاميذه:-

على كثرة خصوم ابن حزم إلا إنه كان له من التلاميذ والأتباع ممن أخذ العلم على يديه وساهم في نشر مذهبه، فمن تلاميذه ابنه أبو رافع الفضل بن علي بن حزم^(١).

(١) سبق ترجمته ص ١٣.

ومن كبار تلاميذه وأنصاره بالأندلس: الحافظ الحميدي أبو عبد الله محمد بن نصر الحميدي الميورقي صاحب كتاب جذوة المقتبس من أخبار الأندلس، كان في أول أمره مالكيًا حيث أخذ علوم المذهب المالكي عن عبد الله بن أبي زيد القيرواني مؤلف كتاب الرسالة المشهور في الفقه المالكي وكان قد سمع بالأندلس من ابن عبد البر النمري، ثم انتقل إلى المذهب الظاهري حيث تتلمذ على ابن حزم ولازمه طويلاً، وهذا أكبر من أخذ عليه فقه الظاهرية بالأندلس وصار على مذهبه، كان عارفاً بالحديث وعلمه مكثراً من التأليف وله كتب مشهورة معتبرة (١).

ومن الفقهاء الذين ناصرُوا المذهب الظاهري، وحملوا لواءه بالأندلس، الفقيه أبو بكر محمد بن الحسين بن بشر الأنصاري الميورقي، كان يعلن ظاهريته حتى طلبه يوسف بن تاشفين أمير الدولة المرابطية مالكية المذهب، فترك المذهب الظاهري واتجه لتدريس الحديث إلى أن توفي سنة ٥٣٧هـ (٢).

المطلب الرابع: حياته، ومؤلفاته:-

أولاً: حياته:-

نشأ ابن حزم كما أسلفت في المطلب الأول في بيت عز ورفاه، حيث المال والجاه والسلطان، فحفت به وسائل العيش الرغيد من كل جانب، وتلقى العلم في صغره على أيدي النساء والحواري في بيته فتعلم منهن القراءة والكتابة وحفظ القرآن وعلومه، مما كان له أكبر الأثر في صقل نفسيته ورهافة حسه، ولهذا فإنه يذكر أثر هذه التربية في تكوين شخصيته في كتابه " طوق الحمامة " ويبين مدى هذه العناية والرعاية التي أحيطت به واهتمام والده به، وحرصه على تربيته وتعليمه ووضعه تحت المراقبة، كل ذلك يذكره ابن حزم بنفسه فيقول: "لقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري لأني ربيت في حجورهن، ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين

(١) شذرات الذهب ٣ / ٣٠٢ في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي - وابن كثير دمشق ١٤٠٦هـ وفيات الأعيان لابن خلكان

٢٨٢/٤، الناشر دار المصادر بيروت، سير أعلام النبلاء ١٩/١٢٠.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ١١/٦٧٥، ط دار الغرب الإسلامي، وانظر أيضاً لإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب ٣/١٤٤.

تبقل وجهي، وهن علمني القرآن ورويني كثيراً من الأشعار، ودريني في الخط، ولم يكن كدي وأعمال ذهني مذ أول فهمي، وأنا في سن الطفولة جداً، إلا تعرف أسبابهن، والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك، وأنا لا أنسى شيئاً في جهتهن فطرت به فأشرفت من أسبابهن على غير قليل" (١).

وأما عن مراقبته فيقول: "إني كنت وقت تأجج نار الصبا وشره الحداثة وتمكن غرارة الفتوة، مقصوراً محظراً علي بين رقباء ورقائب، فلما ملكت نفسي وعقلت صحبت أبا الحسن بن علي الفارسي في مجلس أبي القاسم عبد الرحمن بن الأزدي شيخنا وأستاذي رضي الله عنه، وكان أبو الحسن المذكور عاقلاً عاملاً عالماً ممن تقدم في الصلاح والنسك الصحيح في الزهد في الدنيا، فنفعني الله به كثيراً وعلمت منه موقع الإساءة وقبح المعاصي" (٢).

مما سبق يمكن القول بأن ابن حزم قد أشرف على إعدادة وتربيته منذ حداثة سنه داخل البيت وخارجه، وسلم إلى ربٍّ مستقيم كان له أكبر الأثر في عفته واستقامته واهتمامه بالعلم وأهله، وانصرافه عن الفساد ألا وهو الشيخ أبو الحسين الفارسي.

تيسر لابن حزم أن يتلقى العلم والأدب — كما ذكرنا — على أيدي علماء ومربين لم يحظ به غيره من العلماء مما جعل عقله تستوعب كل علوم عصره، وقد دفعه شعوره بالتحدي وإثبات الذات إلى الكد المتواصل في التحصيل وتحمل المشاق في طلب العلم والمناظرات في مناطق متعددة، وفند مزاعم المخالفين بكل قوة وصراحة.

ويروى في هذا الصدد أنه تناظر مع الفقيه الباجي الإمام المالكي المشهور، فقال له الباجي: "أنا أعظم منك همة في طلب العلم، لأنك طلبته وأنت معان عليه، فتسهر بمشكاة الذهب، وطلبته وأنا أسهر بقنديل بئس السوق، فقال له ابن حزم: هذا الكلام عليك، لا لك: لأنك إنما

(١) طوق الحمامة لابن حزم ص ٤٧.

(٢) طوق الحمامة ص ٦٩.

ذكرته، فلم أرج إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة (١) .

ثانياً: مؤلفاته:-

ولقد كان لما طبع عليه هذا العالم من الصفات الطيبة، وما وهبه الله -تعالى- من الكفاءات العلمية والقدرات العقلية أنه كان حامل فنون عديدة، وذا بصر بعلوم كثيرة من حديث وفقه وجدل ونسب، وما يتعلق بأذيال الأدب، مع المشاركة في أنواع من العلوم القديمة كالمنطق والفلسفة، وله في بعض الفنون كتب ومصنفات أشهرها الفصل بين أهل الآراء والنحل، وكتاب الصادع والرادع على من كفر من أهل التأويل من المسلمين، وكتاب الجامع في صحيح الحديث باختصار الأسانيد، وكتاب الإمامة والسياسة، وكتاب أخلاق النفس، والإيصال إلى فهم كتاب الخصال، وكتاب كشف الألباب ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس، وكتاب الأحكام في أصول الأحكام، وكتاب المحلى، وقد شرح فيه المذهب الظاهري في جميع أبواب الفقه، وغير هذه الكتب كثير.

قال أبو رافع الفضل بن علي بن أحمد بن حزم ولد الإمام المذكور "إن مبلغ تواليف والدي في الحديث والفقه والأصول والملل والنحل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارضين نحو أربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة وهذا شيء لم يعهد إلا لمحمد بن جرير الطبري فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفاً فقد حسبت أيام حياته وتصانيفه فجاءت لكل يوم أربع عشرة ورقة" (٢).

وكانت مؤلفاته في شتى فروع العلم، الفقه، الحديث، الأصول، الأدب والشعر والبلاغة، حتى الطب، ويعتبر كتابه «المحلى بالآثار» من أفضل كتبه على الإطلاق، والذي يعد أكبر موسوعة فقهية اعتمد فيها على ذكر المسألة والآيات والأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين

(١) الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي ٩٥/٢٠ الناشر دار إحياء التراث - بيروت - عام ١٤٢٠هـ .

(٢) المعبر في خبر من غير للحافظ الذهبي ٢٤٣/٣ الناشر دار الكتب العلمية - بيروت.

طلبت العلم وأنت في هذه الحال رجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبته في حال ما تعلمه وما ذكرته، فلم أرج إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة (١) .

ثانياً: مؤلفاته:-

ولقد كان لما طبع عليه هذا العالم من الصفات الطيبة، وما وهبه الله -تعالى- من الكفاءات العلمية والقدرات العقلية أنه كان حامل فنون عديدة، وذا بصر بعلوم كثيرة من حديث وفقه وجدل ونسب، وما يتعلق بأذيال الأدب، مع المشاركة في أنواع من العلوم القديمة كالمنطق والفلسفة، وله في بعض الفنون كتب ومصنفات أشهرها الفصل بين أهل الآراء والنحل، وكتاب الصادع والرادع على من كفر من أهل التأويل من المسلمين، وكتاب الجامع في صحيح الحديث باختصار الأسانيد، وكتاب الإمامة والسياسة، وكتاب أخلاق النفس، والإيصال إلى فهم كتاب الخصال، وكتاب كشف الألباب ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس، وكتاب الأحكام في أصول الأحكام، وكتاب المحلى، وقد شرح فيه المذهب الظاهري في جميع أبواب الفقه، وغير هذه الكتب كثير.

قال أبو رافع الفضل بن علي بن أحمد بن حزم ولد الإمام المذكور "إن مبلغ توالييف والدي في الحديث والفقه والأصول والملل والنحل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المعارضين نحو أربعمئة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة وهذا شيء لم يعهد إلا لمحمد بن جرير الطبري فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفاً فقد حسبت أيام حياته وتصانيفه فجاءت لكل يوم أربع عشرة ورقة" (٢).

وكانت مؤلفاته في شتى فروع العلم، الفقه، الحديث، الأصول، الأدب والشعر والبلاغة، حتى الطب، ويعتبر كتابه «المحلى بالآثار» من أفضل كتبه على الإطلاق، والذي يعد أكبر موسوعة فقهية اعتمد فيها على ذكر المسألة والآيات والأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين

(١) الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي ٩٥/٢٠ الناشر دار إحياء التراث - بيروت - عام ١٤٢٠هـ .

(٢) العبر في خبر من غير للحافظ الذهبي ٢٤٣/٣ الناشر دار الكتب العلمية - بيروت.

وأصحاب المذاهب، قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام - وكان أحد المجتهدين -: ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل "المحلى" لابن حزم، وكتاب "المغني" للشيخ موفق الدين. قال الذهبي: لقد صدق الشيخ عز الدين^(١)، فقد كانت لابن حزم ملكة نادرة في النقل والتمحيص والموازنة بين الأقوال.

ولابن حزم مصنفات في فروع كثيرة من العلم: فله في أصول الدين والفرق والعقائد ومصطلح الحديث والفقه والبلاغة والأدب ولم يترك ابن حزم باباً من أبواب العلم إلا طرقها وبقوة وصنف فيها.

المطلب الخامس: ما قيل عنه:-

قال الغزالي: وجدت في أسماء الله تعالى كتاباً لأبي محمد بن حزم يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه^(٢).

وقال عنه الذهبي: وكان إليه المنتهى في الذكاء والحفظ وسعة الدائرة في العلوم، وكان شافعياً ثم انتقل إلى القول بالظاهر ونفى القول بالقياس وتمسك بالعموم والبراءة الأصلية، وكان صاحب فنون فيه دين وتورع وتزهد وتحري للصديق، وكان أبوه وزيراً جليلاً محتشماً كبير الشأن، وكان لأبي محمد كتب عظيمة لاسيما كتب الحديث والفقه وقد صنف كتاباً كبيراً في فقه الحديث سماه: الإيصال إلى فهم كتاب الخصال الجامعة لجمل شرائع الإسلام والحلال والحرام والسنة والإجماع، أورد فيه أقوال الصحابة فمن بعدهم والحجة لكل قول، وهو كبير جداً. وله كتاب الإحكام في أصول الأحكام مجلدان، وكتاب المحلى في الفقه على مذهبه واجتهاده مجلد، وشرحه هو المحلى في ثمان مجلدات، وكتاب الفصل في الملل والنحل ثلاث مجلدات، وكتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى للكتابين التوراة والإنجيل^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ١٨/١٩٨.

(٢) تذكرة الحفاظ للذهبي، ٣/٢٢٨.

(٣) تذكرة الحفاظ للذهبي، ٣/٢٢٨.

وقال صاعد بن أحمد: كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار أخبرني ابنه الفضل أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعمائة مجلد (١).

وقال ابن خلكان: كان حافظاً عالماً بعلوم الحديث مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة بعد أن كان شافعي المذهب فانتقل إلى مذهب أهل الظاهر وكان متفنناً في علوم حجة عاملاً بعلمه زاهداً في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدبير الملك متواضعاً ذا فضائل وتآليف كثيرة (٢).

وكان ابن حزم كثير الوقوع في العلماء المتقدمين لا يكاد أحد يسلم من لسانه، فنفرت عنه القلوب، واستمحل من فقهاء وقته فمالوا على بغضه وردوا قوله، وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه، وحذروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامهم عن الدنو إليه والأخذ منه، فأقصته الملوك وشردته عن بلاده، وقال ابن العريف كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين (٣). قال شيخ الإسلام ابن تيمية، مقوماً ابن حزم في الاعتقاد والفقه والمنهج: "إن كان أبو محمد بن حزم في مسائل الإيمان والقدر أقوم من غيره وأعلم بالحديث وأكثر تعظيماً له ولأهله من غيره، لكن قد خالط من أقوال الفلاسفة والمعتزلة في مسائل الصفات ما صرفه عن موافقة أهل الحديث في معاني مذهبهم في ذلك، فوافق هؤلاء في اللفظ وهؤلاء في المعنى، وبمثل هذا صار يذم من الفقهاء، والمتكلمين وعلماء الحديث باتباعه لظاهر لا باطن له، كما نفى المعاني في الأمر والنهي والاشتقاق، وكما نفى خرق العادات ونحوه من عبادات القلوب، مضموماً إلى ما في كلامه من الوقعة في الأكابر، والإسراف في نفى المعاني ودعوى متابعة الظواهر، وإن كان له من الإيمان والدين والعلوم الواسعة الكثيرة ما لا يدفعه إلا مكابر، ويوجد في كثير من كثرة الإطلاع على الأقوال والمعرفة بالأحوال والتعظيم لدعائم الإسلام ولجانب الرسالة ما لا يجتمع مثله لغيره، فالمسألة التي يكون فيها حديث يكون جانبه فيها ظاهر الترجيح، وله من

(١) المصدر السابق.

(٢) العبر في خير من غير للذهبي ٢٤٣/٣ الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

(٣) شذرات الذهب ٣/٣٩٩.

التمييز بين الصحيح والضعيف والمعرفة بأقوال السلف ما لا يكاد يقع مثله لغيره من الفقهاء" (١).

وقال عنه تلميذه الحميدى: "كان حافظا عالما بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة متفننا في علوم حجة، عاملا بعلمه زاهدا في الدنيا بعد الرئاسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدبير الممالك، متواضعا ذا فضائل حجة وتوايف كثيرة في كل ما تحقق به من العلوم، وجمع من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمسندات شيئا كثيرا وسمع سماعا جمعا، وأول سماعه من أبي عمر أحمد بن محمد بن الجصور قبل الأربعمائة، وألف في فقه الحديث كتابا كبيرا سماه كتاب [الإيصال إلى فهم الخصال الجامعة، لجمل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام وسائر الأحكام على ما أوجبه القرآن والسنة والإجماع] أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين في مسائل الفقه، والحجة لكل طائفة عليها، والأحاديث الواردة في ذلك من الصحيح والسقم بالأسانيد، وبيان ذلك كله وتحقيق القول فيه، وله كتاب الإحكام في أصول الأحكام في غاية التقصى وإيراد الحجاج، وكتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل، وكتاب في الإجماع ومسائل على أبواب الفقه، وكتاب في مراتب العلوم وكيفية طلبها وتعلق بعضها ببعض، وكتاب [إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل، وبيان تناقض ما بأيديهم من ذلك مما لا يحتمل التأويل] وهذا مما سبق إليه، وكذلك كتاب [التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامة والأمثلة الفقهية] فإنه سلك في بيانه وإزالة سوء الظن عنه وتكذيب المخرقين به طريقة لم يسلكها أحد قبله في ما علمنا، وما رأينا مثله في ما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين، وكان له في الآداب والشعر نفس واسع وباع طويل" (٢).

أما المالكية في الأندلس فكان بينهم وبين ابن حزم مناظرات أكسبته عداوتهم وجعلتهم يحطون من قدره، قال القاضي أبو بكر بن العربي، في كتاب "القواصم والعواصم" عن الظاهرية: "هي

(١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ١٨/٤ لمحقق: أنور الباز - عامر الجزار، الناشر: دار الوفاء، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦ هـ

(٢) تذكرة الحفاظ للحافظ الذهبي ٢٢٨/٣.

أمة سخيصة تسورت على مرتبة ليست لها وتكلمت بكلام لم تفهمه تلقفوه من إخوانهم الخوارج حيث تقول: لا حكم إلا لله، وكان أول بدعة لقيت في رحلتي القول بالباطن، فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخيصة كان من بادية أشبيلية يعرف بابن حزم، نشأ وتعلق بمذهب الشافعي ثم انتسب إلى داود ثم خلع الكل واستقل بنفسه وزعم أنه إمام الأمة يضع ويرفع ويحكم ويشرع ينسب إلى دين الله ما ليس فيه ويقول عن العلماء ما لم يقولوا تنفيراً للقلوب عنهم وخرج عن طريق المشبهة في ذات الله تعالى وصفاته فجاء فيه بطوام واتفق كونه بين قوم لا بصر لهم إلا بالمسائل ولا علم لهم بالدليل^(١).

كان لسان ابن حزم يضرب به المثل في الحدة، فلقد كان ابن حزم يبسط لسانه في علماء الأمة وخاصة خلال مناظراته مع المالكية في الأندلس، وهذه الحدة أورثت نفوراً في قلوب كثير من العلماء عن ابن حزم وعلمه ومؤلفاته، وكثر أعداؤه في الأندلس، حتى نفوه من قرطبة وأحرقت كتبه في محاضر عامة بأمر من المعتضد بن عباد، وصار ابن حزم ينتقل من مكان لآخر حتى مات طريداً شريداً في قرية «لبلة» غربي الأندلس في ليلة الإثنين الثامن والعشرين من شعبان سنة ٤٥٦هـ، وبعد حياة حافلة بالإنتاج العلمي، والجدال في الحق، والصدق في الإيمان؛ بعد عمر بلغ اثنتين وسبعين سنة^(٢).

وفي الجملة يعتبر ابن حزم رحمه الله من الأعلام البارزين في تاريخ الأمة، ومن أئمة الإسلام ومن كان له أبلغ الأثر في نشر العلوم الشرعية وإثرائها عبر التاريخ الإسلامي.

(١) تذكرة الحفاظ ٣/٢٢٩.

(٢) تذكرة الحفاظ ٣/٢٣٠.

المبحث الثاني: التعريف بالكتاب:-

وفيه ثلاثة مطالب:-

المطلب الأول: اسم الكتاب وأهميته:-

اسم الكتاب:- "مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات"، والكتاب غير مشكوك في نسبته للإمام ابن حزم فقد نسبته للمؤلف معظم من ترجم له كالذهبي^(١)، ومحمد بن فتوح الحميدي^(٢)، وغيرهم.

وقد نشر الكتاب من عدة دور للنشر من أهمها: طبعة دار زاهد القدسي المصرية، ودار الكتب العلمية ببيروت، ودار ابن حزم ببيروت.

كما نشر مع كتاب: نقد مراتب الإجماع لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ٧٢٨هـ ونشرته دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، بعناية حسن أحمد إسبر وهي طبعة تحتوي على الكتابين: "مراتب الإجماع" و "نقد مراتب الإجماع".

أهميته:-

"مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات" كتاب ذو أهمية بالغة وفوائد عالية، فقد كتب في الإجماع كثير من أهل العلم ممن جمع المسائل التي نقل فيها الإجماع، لخطورة الشذوذ والمخالفة في مثل هذه المسائل، ولقد اشتهر من هذه الكتب: "الإجماع" للإمام ابن المنذر وهو أشهرها، وهذا الكتاب "مراتب الإجماع" للحافظ محمد بن حزم.

وكتاب مراتب الإجماع له أهمية خاصة، إذ المؤلف حاول أن يستقصي فيه مواطن الإجماع ما أمكن، ولأنه خالف فيه مذهبه الظاهري الذي لا يعتبر بإجماع بعد عصر الصحابة رضي الله عنهم، بل خالف ما قرره هو نفسه في كتابه "الأحكام" حيث قال: "إنما علينا طلب أحكام

(١) تذكرة الحفاظ/ الطبعة ١٤ / جزء ٣ ص ٢٢٧.

(٢) جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس ٣٠٨\١، الدار المصرية للتأليف والنشر - القاهرة - ١٩٦٦ م.

القرآن والسنن الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ ليس الدين في سواهما أصلاً، ولا معنى لطلبنا هل أجمع على ذلك الحكم أو اختلف فيه" (١).

ونراه يقول في كتابه هذا: "فإن الإجماع قاعدة من قواعد الملة الحنيفية، يرجع إليه ويهرع نحوه ويُكفر من خالفه إذا قامت عليه الحجة (٢)".

لقد رتب الإمام ابن حزم كتابه هذا على أبواب الفقه، فذكر ما أجمع عليه أهل العلم في العبادات والمعاملات والاعتقاد، غير متعرض لذكر الدليل، وقام الإمام ابن تيمية بنقده، والتعليق عليه في كتاب: نقد مراتب الإجماع.

ومما لفت نظري: هو تشكيك الدكتور عبد الله عبد المحسن التركي في نسبة كتاب نقد مراتب الإجماع لشيخ الإسلام ابن تيمية، ونسبه لابن شيخ السلامة حيث ذكر في كتابه: (المذهب الحنبلي): (يوجد في عالم المطبوعات كتاب بعنوان (نقض مراتب الإجماع)، منسوباً لشيخ الإسلام ابن تيمية، ولم أجد له في المصادر التي ذكرت تصانيفه أن له كتاباً بهذا العنوان أو عنوان مقارب، والذي يبدو في النظر أن هذا الكتاب المطبوع هو نفس كتاب ابن شيخ السلامة، ولكن ظن ناشروه أو ناسخه أنه لابن تيمية من أجل كثرة النقول عنه في هذا الكتاب، ولا غرابة في ذلك، فقد كان ابن شيخ السلامة - كما قال مترجموه - من المعتنين بفتاوى شيخ الإسلام، المنتصرين لآرائه وأقواله) (٣).

ولكن مما يقوي نسبة الكتاب لشيخ الإسلام ابن تيمية استفاضة نسبة الكتاب لشيخ الإسلام، ويبدو لي أن الكتاب الذي نسبته الدكتور التركي لابن شيخ السلامة ليس هو كتاب نقد مراتب الإجماع، إنما هو "شرح مراتب الإجماع" وقد ذكر ذلك من ترجم لابن شيخ السلامة مثل الصفدي (٤) وغيره.

(١) ٥٤٩/٤.

(٢) مقدمة كتاب مراتب الإجماع صفحة ٧.

(٣) المذهب الحنبلي ٣٨٧/٢.

(٤) الوافي بالوفيات ١١١/٣١، دار إحياء التراث - بيروت - ١٤٢٠هـ، وقد تناول هذا الأمر بإثبات نسبة الكتاب لشيخ الإسلام، محمد عزيز شمس في كتابه "الجامع لسيرة شيخ الإسلام ص ٢٩٤، ٣١٧، ٣٢٣.

المطلب الثاني: كلام العلماء عن الكتاب:-

عدّ كثير من العلماء كتاب "مراتب الإجماع" لابن حزم من أصح كتب الإجماع وأكثرها استيعاباً لمسائل الإجماع، حتى من مخالفه، فقد شهد بفضله علماء المالكية، جاء في "المعيار المعرب": أن شيوخ المالكية يعدون أصح الإجماعات إجماعات ابن حزم، و نقل عن ابن عرفة- وهو من كبار علماء المالكية- قوله: إن من أوعب كتب الإجماع ومن جملة إجماع ابن حزم (١).

وقد ذكر محقق كتاب الإجماع لابن المنذر أن العلماء ذكروا أن أكثر كتب الإجماع فائدة ثلاثة كتب أولها: كتاب الإجماع لابن المنذر، وثانيها كتاب مراتب الإجماع لابن حزم، وثالثها كتاب تشنيف الأسماء بمسائل الإجماع "في الفروع" للشيخ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي وهو مفقود (٢).

وقد تعقب شيخ الإسلام ابن تيمية كتاب مراتب الإجماع، وبيّن أن ابن حزم قد أخطأ في فهمه لبعض النصوص، مما أدى لغلط في نقل الإجماع، واستدرك عليه في بعض المواضع وختم تلك الانتقادات بقوله:

" ولم يكن قصدنا تتبع ما ذكره من الإجماعات التي عرف انتقاضها .. مع أن أكثر ما ذكره من الإجماع هو كما حكاه، لا نعلم فيه نزاعاً، وإنما المقصود أنه مع كثرة اطلاعه على أقوال العلماء وتبرزه في ذلك على غيره، واشترطه ما اشترطه في الإجماع الذي يحكيه - يعني أنه إجماع متيقن لا يعلم فيه خلافاً -، يظهر فيما ذكره في الإجماع نزاعات مشهورة، وقد يكون الراجح في بعضها خلاف ما يذكره في الإجماع" (٣).

(١) المعيار المعرب والجامع المغرب لأبي العباس الونشريسي ٣٢/١٢ نشر وزارة الأوقاف المغربية عام ١٤٠١هـ.

(٢) مقدمة كتاب الإجماع لابن المنذر ١٩/١ لمحقق: فؤاد عبد المنعم أحمد الناشر: دار المسلم للنشر والتوزيع.

(٣) نقد مراتب الإجماع لابن تيمية ص ٣٠٢ بعناية: حسن أحمد إسبر الناشر: دار ابن حزم، بيروت ط ١، ١٤١٩هـ.

المطلب الثالث: منهج المؤلف في كتابه:-

قام المؤلف رحمه الله تعالى بجمع المسائل التي صح فيها الإجماع وافردها عن المسائل التي وقع فيها الخلاف بين العلماء فقد كان منهجه إيراد المسائل المجمع عليها أولاً ثم يورد بعدها المسائل المختلف فيها بين العلماء.

ففي باب قصر الصلاة الرباعية مثلاً: ذكر أولاً اتفاقهم في قصر الظهر والعصر ثم بين اختلافهم في قصر صلاة العشاء، فقال: (واتفقوا على أن من حج، أو اعتمر، أو جاهد المشركين، أو كانت مدة سفره ثلاثة أيام فصاعداً، فصلّى الظهر والعصر ركعتين فقد أدى ما عليه.

واختلفوا في العتمة(العشاء)، روي عن ابن عباس في حديث شعبه ما يدل على أنه كان لا يقصرها(١).

وقد قسم المؤلف المسائل الفقهية إلى طرفين ووسط، فقال:

- فأحد الطرفين: هو ما اتفق جميع العلماء على وجوبه، أو على تحريمه، أو على أنه مباح لا حرام ولا واجب، فسمينا هذا القسم الإجماع اللازم.

- والطرف الثاني: هو ما اتفق جميع العلماء على أن من فعله أو اجتنبه فقد أدى ما عليه من فعل أو اجتناب أو لم يأثم، فسمينا هذا القسم الإجماع المجازي، عبارة اشتققناها لكل صنف من صفته الخاصّة به، ليقرب بها التفاهم بين المعلم والمتعلم والمناظرين على سبيل طلب الحقيقة إن شاء الله وما توفيقنا إلا بالله.

- وبين هذين الطرفين أشياء قال بعض العلماء هي حرام، وقال آخرون منهم ليست حراماً لكنّها حلال، وقال قوم منهم هي واجبة، وقال آخرون منهم ليست بواجبة لكنّها مباحة، وكرهها بعضهم واستحبها بعضهم. فهذه مسائل من الأحكام والعبادات لا سبيل إلى وجود مسمّى الإجماع لا في جوامعها، ولا في أفرادها(٢).

(١) مراتب الإجماع ٢٥/١ الناشر دار الكتب العلمية - بيروت.

(٢) مراتب الإجماع ٨/١.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: مؤسسه:-

داود بن علي الأصفهاني: نسبه ونشأته:-

هو أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصفهاني ، ولد بالكوفة عام ٢٠٢هـ، وتوفي ببغداد عام ٢٧٠هـ، وقد كان شافعيًا أول أمره، بل هو أول من صنف في مناقب الشافعي، كما التقى بالإمام الشافعي، وكان معجبًا به أشد الإعجاب، كما تلقى الفقه على كثير من تلاميذه، وكان له ولع شديد بطلب الحديث، فسمع الكثيرين من محدثي عصره، وتعددت رحلاته في سبيل ذلك فرحل إلى "نيسابور" وغيرها ليسمع المحدثين هناك، وقد دون ما رواه، وكانت كتبه مملوءة بالحديث، ولما اتجه إلى الفقه، كان فقهه ما رواه من أحاديث (١) .

قال الذهبي: " دَاوُدُ بْنُ عَلِيٍّ بَصِيرٌ بِالْفِقْهِ، عَالِمٌ بِالْقُرْآنِ، حَافِظٌ لِلْأَثَرِ، رَأْسٌ فِي مَعْرِفَةِ الْخِلَافِ، مِنْ أَوْعِيَةِ الْعِلْمِ، لَهُ ذِكَاؤٌ خَارِقٌ، وَفِيهِ دِينَ مَتِينٌ"، تلقى العلم ببغداد على يد أبي ثور وإسحاق بن راهويه، وسمع الكثير من الحديث، ثم اتجه للظاهر، وأنكر القياس. فهو يعتبر بإجماع العلماء أول من أظهر القول بظاهرية الشريعة بين أهل السنة، فقد قال بأخذ الأحكام من ظواهر النصوص، من غير تعليل لها، فهو بذلك ينفي القياس في الأحكام قولاً، وإن اضطر إليه فعلاً، يسميه الدليل (٢).

ولا بد هنا من توضيح حول قولنا إن داود هو أول من كان ظاهرياً خالصاً، والمقصود بالظاهرية من هو من أهل السنة فحسب، وإلا فمُنْكَرِي القياس من الفرق الأخرى كثر فأول من قال بإبطال القياس: هو النَّظَّامُ المعتزلي (٣) وهو أول من باح به، ثم تابعه قوم من

(١) تهذيب الأسماء واللغات للإمام النووي ٢٥٦/١ الناشر دار الفكر - بيروت -.

(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي ١٠١/٢٥ وما بعدها: مؤسسة الرسالة - بيروت - الطبعة التاسعة ١٤١٣هـ.

(٣) إبراهيم بن سيار مولى آل الحارث، أبو إسحاق، شيخ المعتزلة، صاحب التصانيف توفي سنة ٢٣١ هـ، من آثاره: "الطفرة" "الجواهر

والأعراض" "الوعيد" .. سير أعلام النبلاء ١٠٠/١٠، "الأعلام" ٤٣/١.

المعتزلة كجعفر بن حرب^(١)، وجعفر بن حبشة^(٢)، ومحمد بن عبد الله الإسكافي^(٣). وتابعهم على نفيه داود الظاهري، فيما حكاه عنه ابن عبد البر في كتاب "جامع العلم" أيضاً: لا خلاف بين فقهاء الأمصار وسائر أهل السنة في نفي القياس في التوحيد، وإثباته في الأحكام إلا داود، فإنه نفاه فيهما جميعاً^(٤).

نزعته إلى الظاهرية:-

يعد داود الأصفهاني بإجماع العلماء أول من أظهر القول بظاهرية الشريعة من أهل السنة، فقد قال بأخذ الأحكام من ظواهر النصوص، من غير تعليل لها، فهو بذلك ينفي القياس في الأحكام قولاً، وإن اضطر إليه فعلاً يسميه الدليل.

فالدليل عند الظاهرية يعتمد على صريح النصوص، فليس باباً من أبواب القياس، ومن أمثلته أن يذكر النص فيه مقدمتين، ولا يصرح بالنتيجة، كأن يقول: كل مسكر خمر، وكل خمر حرام، والنتيجة أن كل مسكر حرام، ولكن النص لم يصرح بالنتيجة، فيعد ذلك من دلالة اللفظ.

ومن ذلك أيضاً تعميم فعل الشرط، كما في قوله تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} ^(٥) فهذا النص وارد في الكافرين، ولكن معناه المأخوذ من لفظه يفيد أن كل من يكونون في حال عصيان وينتهون بالتوبة يكونون في حال غفران الله تعالى، فالتعميم هنا قد جاء من ظاهر النص وليس من القياس^(٦).

(١) أبو الفضل، الممذاني، المعتزلي، كان من نساك القوم، له تصانيف من آثاره "متشابه القرآن، الاستقصاء، الرد على أصحاب الطوائف، الأصول"، توفي سنة ٢٣٦ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٠ / ٥٤٩ الأعلام ٢ / ١٢٣.

(٢) أبو محمد جعفر بن مبشر بن أحمد الثقفي. أحد مصنفي المعتزلة، له آراء انفرد بها، وكان موصوفاً بالديانة. انظر: وميزان الاعتدال: ١ / ١٤٤. الأعلام: ٢ / ١٢٦.

(٣) وأبو جعفر، السمرقندي ثم الإسكافي، المتكلم، كان أعجوبة في الذكاء، وسعة المعرفة، من آثاره: "نقض كتاب حسين النجار، تفضيل علي، الرد على من أنكر خلق القرآن"، توفي سنة ٢٤٠ هـ. انظر سير أعلام النبلاء ١٠ / ٥٥٠.

(٤) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، للشوكاني ٢ / ٩٤ الناشر دار الفكر-بيروت- سنة ١٤١٢ هـ.

(٥) سورة الأنفال الآية (٣٨).

(٦) البحر المحيط للزركشي ١٥ / ٤ الناشر دار الكتب العلمية - بيروت - عام ١٤٢٩ هـ.

المعتزلة كجعفر بن حرب^(١)، وجعفر بن حبشة^(٢)، ومحمد بن عبد الله الإسكافي^(٣). وتابعهم على نفيه داود الظاهري، فيما حكاه عنه ابن عبد البر في كتاب "جامع العلم" أيضاً: لا خلاف بين فقهاء الأمصار وسائر أهل السنة في نفي القياس في التوحيد، وإثباته في الأحكام إلا داود، فإنه نفاه فيهما جميعاً^(٤).

نزعته إلى الظاهرية:-

يعد داود الأصفهاني بإجماع العلماء أول من أظهر القول بظاهرية الشريعة من أهل السنة، فقد قال بأخذ الأحكام من ظواهر النصوص، من غير تعليل لها، فهو بذلك ينفي القياس في الأحكام قولاً، وإن اضطر إليه فعلاً يسميه الدليل.

فالدليل عند الظاهرية يعتمد على صريح النصوص، فليس باباً من أبواب القياس، ومن أمثلته أن يذكر النص فيه مقدمتين، ولا يصرح بالنتيجة، كأن يقول: كل مسكر خمر، وكل خمر حرام، والنتيجة أن كل مسكر حرام، ولكن النص لم يصرح بالنتيجة، فيعد ذلك من دلالة اللفظ.

ومن ذلك أيضاً تعميم فعل الشرط، كما في قوله تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ} ^(٥) فهذا النص وارد في الكافرين، ولكن معناه المأخوذ من لفظه يفيد أن كل من يكونون في حال عصيان وينتهون بالتوبة يكونون في حال غفران الله تعالى، فالتعميم هنا قد جاء من ظاهر النص وليس من القياس^(٦).

(١) أبو الفضل، الحمذاني، المعتزلي، كان من نساك القوم، له تصانيف من آثاره "متشابه القرآن، الاستقصاء، الرد على أصحاب الطوائف، الأصول"، توفي سنة ٢٣٦ هـ. انظر: سير أعلام النبلاء ١٠ / ٥٤٩ الأعلام ٢ / ١٢٣.

(٢) أبو محمد جعفر بن مبشر بن أحمد الثقفي. أحد مصنفي المعتزلة، له آراء انفرد بها، وكان موصوفاً بالديانة. انظر: وميزان الاعتدال: ١ / ١٤٤. الأعلام: ٢ / ١٢٦.

(٣) وأبو جعفر، السمرقندي ثم الإسكافي، المتكلم، كان أعجوبة في الذكاء، وسعة المعرفة، من آثاره: "نقض كتاب حسين النجار، تفضيل علي، الرد على من أنكروا خلق القرآن"، توفي سنة ٢٤٠ هـ. انظر سير أعلام النبلاء ١٠ / ٥٥٠.

(٤) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، للشوكاني ٩٤ / ٢ الناشر دار الفكر - بيروت - سنة ١٤١٢ هـ.

(٥) سورة الأنفال الآية (٣٨).

(٦) البحر المحيط للزركشي ١٥ / ٤ الناشر دار الكتب العلمية - بيروت - عام ١٤٢٩ هـ.

كان داود بن علي عالماً كبيراً في مجال الأحاديث، إلا أن الرواية عنه قد قلت لانتحاله القول بالظاهر، ومع وجود هذا النفور من أهل عصره، فإنه كان فصيحاً قوياً حاضر البديهة، قوي الحجّة، سريع الاستدلال، كما كان جريئاً فيما يعتقد أنه الحق، لا يهاب النطق به، ولا يخشى فيه لومة لائم، وكان مع جرأته ناسكاً عابداً زاهداً ورعاً تقياً، يعيش على القليل أو أقل القليل، فكان يرد الهدايا ولا يقبلها، وفضلاً عن ذلك فقد كان جم التواضع، فهو لا يتعالى على أحد بعلمه كما لا يستطيل على الناس بعبادته، قال ابن السبكي: كان دود جبلا من جبال العلم والدين، له من سداد النظر وسعة العلم ونور البصيرة والإحاطة بأقوال الصحابة والتابعين، والقدرة على الاستنباط ما يعظم وقعه، وقد دونت كتبه، وكثرت أتباعه، وكان من الأئمة المتبوعين في الفروع^(١).

المطلب الثاني: أصوله:-

بين ابن حزم أصول المذهب الظاهري بقوله: الأصول التي لا يُعرف شيء من الشارع إلا منها أربعة وهي نص القرآن الكريم، ونص كلام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذي هو عن الله -تعالى- مما صح عنه عليه الصلاة والسلام ونقله الثقات، وإجماع جميع علماء الأمة، ودليل منها لا يحتمل إلا وجهاً واحداً.^(٢)

وعلى هذا تكون الأصول التي يبنى عليها الفقه الظاهري أربعة أصول^(٣)، هي:

١ - القرآن الكريم:

وهو أصل الشريعة الأول وسجلها الباقي إلى يوم القيامة، والقرآن إما بين بنفسه كأحكام النكاح والطلاق والميراث، وإما يحتاج إلى بيان من السنة، كتفصيل الحمل في معنى الصلاة والزكاة والحج، فتكون السنة بياناً مصداقاً لقوله تعالى:

(١) شرح المحلى على جمع الجوامع ٢ / ٤٩١.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٦٩/١ الناشر: دار الحديث - القاهرة - سنة ١٤٠٤

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي ١٨٦/١٨

{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (١)، وبيان القرآن قد

يكون جلياً واضحاً، وقد يكون خفياً، فيختلف الناس في فهمه، فيفهمه بعضهم بفهمه، وبعضهم يتأخر عن فهمه.

ثم إن التعارض بين نصوص القرآن ممتنع وينكره ابن حزم، ويقطع بذلك؛ لأن القرآن وحي إلهي، فلا معارضة فيه، لأن التعارض في القرآن معناه أن يكون فيه اختلاف، وهذا قد نفاه الله - تعالى - بقوله: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} (٢)، فإذا توهم متوهم وجود تعارض بين نصين من القرآن، فذلك يزول بإمكان التوفيق، وإما بالتخصيص للعام من القرآن وإما بالنسخ.

٢ - السنة المطهرة:

يقسم الظاهرية السنة إلى قسمين (٣):

القسم الأول: - سنة متواترة وهي حجة قطعية من غير تردد، والظاهرية يقررون أن أقل حد للتواتر اثنان إذا أمن عدم اتفاقهما على الكذب.

والقسم الثاني من السنة: خبر الآحاد، وهو يوجب العمل والاعتقاد عند الظاهرية والفرق بين القسمين هو في قوة الاستدلال فالتواتر يقدم على الآحاد، ويشترط في الرواة عند الظاهرية أن يكونوا عدولاً ثقات في ذات أنفسهم، وأعلى مراتب الثقة أن يكون الراوي فقيهاً ضابطاً حافظاً، وخبر الواحد هو ما رواه الواحد أو الأكثر إذا لم يستوف شروط التواتر. وبذلك يكون اجتهاد الصحابة عند الظاهرية ليس حجة في الدين، فلا يقلد الصحابي، ولا من دونه.

(١) الآية (٤٤) من سورة النحل

(٢) الآية (٨٢) من سورة النساء

(٣) (الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ١٠٠/١ وما بعدها)

ويراد به ما كان في عهد الصحابة فقط لأنه كان ممكناً^(١)، وعلى هذا فإن الظاهرية لم يأخذوا بالإجماع كمصدر مستمر قائم - كما فعل سائر الفقهاء - لأن مسألة اتفاق جميع المجتهدين أمر مستحيل في نظرهم.

٤ - الاستصحاب:

وهو الحكم على الشيء بالحال التي كان عليها من قبل، حتى يقوم دليل على تغير تلك الحال، أو هو جعل الحكم الذي كان ثابتاً في الماضي باقياً في الحال حتى يقوم دليل على تغيره^(٢). وقد قرر الظاهرية أن الأصل في الأشياء الإباحة إلا ما جاء به نص يثبت تحريمه، فقد قال تعالى عند نزول آدم إلى الأرض: {وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ}^(٣)، قال ابن حزم: " فأباح تعالى الأشياء بقوله إنها متاع لنا، ثم حظر ما شاء، وكل ذلك بشرع"^(٤).
المطلب الثالث: أعلامه، وأبرز كتبه:-

أولاً: أعلامه:-

على رأسهم مؤسس المذهب الظاهري داود بن علي الأصفهاني^(٥)، وابن حزم صاحب الكتاب محل البحث^(٦)، وأبو بكر محمد بن داود الأصبهاني الظاهري^(٧)، وابن أبي عاصم أحمد بن عمرو الشيباني^(٨)، وأبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي^(٩)، وأبو الحسن عبد

(١) إرشاد الفحول للشوكاني ١٤٩/١.

(٢) علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف ٩١/١ الناشر: دار القلم - بيروت ط ٨.

(٣) سورة البقرة الآية (٣٦).

(٤) الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم ٥٨/١ الناشر: دار الحديث - القاهرة - عام ١٤٠٤هـ.

(٥) مرت ترجمته ص ٣١.

(٦) مرت ترجمته ص ١١.

(٧) هو ابن مؤسس المذهب الظاهري داود الأصفهاني، وقد تصدر للفتيا بعد والده، ت سنة ٢٩٧هـ، أنظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٠٩/٣، و تاريخ بغداد ٢٥٦/٤، ووفيات الأعيان ٤/ ترجمة ٦٠٤، والوفيات بالوفيات لصالح الدين الصفدي ٨٥/٣.

(٨) هو أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني من أهل البصرة، ولي القضاء بأصبهان ثلاث عشرة سنة، أنظر ترجمته في الجرح والتعديل ٢/ ترجمة ١٢٠، وتذكرة الحفاظ ٢/ ترجمة ٦٦٣، والعبر ٢/ ٧٩، والوفيات لصالح الدين الصفدي ٧/ ٢٦٩، ولسان الميزان ٦/ ٣٤٩، وشذرات الذهب ٢/ ١٩٥.

(٩) هو الإمام الحافظ، أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح الحميدي الأندلسي، صاحب ابن حزم وتلميذه، لازمه وأكثر عنه، استوطن بغداد وتلمذ عليه فيها خلق كثير، منهم أبو بكر الخطيب وغيره، وكتابه حذوة المقتبس من أنفس الكتب وأهمها، توفي سنة ٤٨٨هـ، أنظر ترجمته في الأنساب للسمعاني ٤/ ٢٣٣، واللباب لابن الأثير ١/ ٣٩٢، والصلة لابن بشكوال ٢/ ٥٦٠، والمنظوم لابن الجوزي ٩/ ٩٦، والعبر ٣/ ٣٢٣، وتذكرة الحفاظ ٤/ ترجمة ١٠٤١، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ٣/ ٣٩٢، والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٥/ ١٥٦.

الله بن أحمد بن محمد بن المغلس^(١)، و أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن محمد الأنصاري، المعروف بابن أبي مروان الإشبيلي^(٢)، و علي بن إبراهيم الأنصاري الأوسي، الذي نسخ بخطه غالب تصانيف ابن حزم^(٣) وغيرهم كثير.

ثانياً: - أبرز كتبه: -

الملاحظ أن المذهب الظاهري ليس من المذهب المنتشرة انتشاراً واضحاً، ومع ذلك تعد كتب المذهب كثيرة ومتنوعة، ومن ذلك:

١- كتب داود الظاهري ومنها: كتاب الإيضاح، وكتاب الإفصاح، وكتاب الإجماع، وكتاب إبطال التقليد، وكتاب إبطال القياس، وكتاب خير الواحد، وكتاب الخير الموجب للعلم، وغيرها^(٤).

٢- كتب ابن حزم وقد سبق ذكر طرف منها.

٣- ولابن المغلس كتاب المنهج، وكتاب المفصح، وكتاب أحكام القرآن، وكتاب الطلاق، وكتاب الولاء^(٥).

المطلب الرابع: خلاف الظاهرية، ومدى اعتباره: -

اختلف أهل العلم القائلون بالقياس - رحمهم الله - في هذه المسألة على أربعة أقوال: القول الأول: -

أن خلافهم غير معتبر، وليس معتدا به مطلقاً، وهو منسوب لجمهور أهل العلم، فجل الفقهاء والأصوليين على أنه لا يعتد بخلافهم^(٦)، قال النووي: "حكى عن داود الظاهري أنه أوجب السواك للصلاة ولو صح إيجابه عن داود لم تضر مخالفته في انعقاد الإجماع على المختار الذي

(١) ينظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء للذهبي (١٥ / ٧٧)، وشذرات الذهب لابن العماد (٢ / ٣٠٢).

(٢) ينظر في ترجمته: سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٠ / ٢٤٩)، الأعلام للزركلي (١ / ١٦٤).

(٣) ينظر ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر (١ / ٣٤٤)، الاجتهاد والمجتهدون بالاندلس والمغرب للكتاني (٢ / ١٨).

(٤) الفهرست لابن النديم ٣٠٦/١.

(٥) المصدر السابق.

(٦) سير أعلام النبلاء ١٣ / ١٠٤ وفتاوى ابن الصلاح ص ٦٧.

عليه المحققون والأكثرون" (١)، قال نقلاً عن إمام الحرمين (الجويني): "الذي ذهب إليه أهل التحقيق أن منكري القياس لا يعدون من علماء الأمة وحملة الشريعة؛ لأنهم معاندون مباهتون فيما ثبت استفاضة وتواتراً، ولأن معظم الشريعة صادرة عن الاجتهاد، ولا تفي النصوص بعشر معشارها، وهؤلاء ملتحقون بالعوام" (٢).

وذكر ابن الصلاح (٣) في فتاويه: "أنه لا يعتد بخلاف من خالف فيه من الظاهرية، لتقاصرهم عن درجة الاجتهاد في أحكام الشريعة" (٤)، وقال به بعض من الحنابلة (٥).

القول الثاني:-

أن خلافهم معتبر مطلقاً، وهو الذي استقر عليه الأمر عند الأغلب الأئمة المتأخرين (٦)، وهو رأي كثير من الحنابلة، فهم يرون أن داود من جملة أصحاب الإمام أحمد، وبعضهم ذكره ضمن أصحاب الإمام أحمد عند ذكر الخلاف كأبي الخطاب في كتابه الانتصار، والموفق ابن قدامة في المغني (٧) وابن القيم في زاد المعاد، عندما ذكر أقوال من ذهب إلى أن الوقوف بمزدلفة والمبيت بها ركن كعرفة، قال: وهو مذهب اثنين من الصحابة، ابن عباس، وابن الزبير رضي الله عنهما، وإليه ذهب إبراهيم النخعي، والشَّعبي، وعلقمة، والحسن البصري، وهو مذهب الأوزاعي، وحماد بن أبي سليمان، وداود الظاهري (٨). فأورد رحمه الله قول داود ضمن أقوال العلماء الذين

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٤٢/٣.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات للإمام النووي ٢٥٨/١.

(٣) ابن الصلاح الإمام الحافظ تقي الدين أبو عمرو عثمان ابن المفتي صلاح الدين عبد الرحمن بن عثمان بن موسى الكردي الشهرزوري الشافعي، صاحب كتاب "علوم الحديث": كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه وله مشاركة في عدة فنون وكانت فتاواه مسدودة يضرب به

المثل في الطاعة والعبادة والزهد توفي سنة ٦٤٣ هـ. انظر تذكرة الحفاظ ١٤٩/٤.

(٤) فتاوى ابن الصلاح ٥٠١/٢ الناشر: دار علم الكتب - بيروت - عام ١٤٠٧ هـ.

(٥) التعيين في شرح الأربعين، للطوفي ص ٢٤٤.

(٦) فتاوى ابن الصلاح ص ٦٧.

(٧) الإمام داود الظاهري وأثره في الفقه ص ١٤٤.

(٨) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم ٢٥٣/٢ الناشر: مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ٢٧ ١٤١٥ هـ.

يستدل بقولهم، و نسب الشيخ محمد الأمين الشنقيطي الاعتداد بقولهم للمحققين من علماء الأصول^(١).

القول الثالث:-

أن خلافهم معتبر في غير المسائل القياسية، وأما المسائل القياسية فلا اعتبار بقولهم. وهو قول ابن الصلاح، حيث قال: " والذي أجيب به بعد الاستخارة والاستعانة بالله، أن داود يعتبر قوله ويعتد به في الإجماع إلا فيما خالف فيه القياس الجلي^(٢)، ثم قال: وهو الصحيح من المذهب - أي الشافعي - أنه يُعتبر خلاف داود، وهذا الذي استقرَّ عليه الأمر آخرًا، كما هو الأغلب الأعرف من صفوف الأئمة المتأخرين الذين أوردوا مذهب داود في مصنفاتهم المشهورة، فلولا اعتدادهم به لما ذكروا مذهبه في مصنفاتهم المشهورة، ووافقه الذهبي^(٣). ولعل هذا هو الراجح والله اعلم، لوجهاته ولأن المذهب الظاهري من المذاهب التي تجدد فيها التأصيل الفقهي المعتبر، وقد تعامل معه أئمة الإسلام واعتبروه، وعدم اعتبار خلافات هذا المذهب، فيه إقصاء وإجحاف بتراث العلماء المعتبرين من هذا المذهب، أمثال الإمام ابن حزم والحافظ الحميدي وغيرهم.

(١) نثر الورود على مراقبي السعود، للشنقيطي ٢ \ ٤٢٨ الناشر: دار عالم الفوائد.

(٢) فتاوى ابن الصلاح ص ٦٧، والنووي في تهذيب الأسماء ١ \ ١٨٣.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٣ / ١٠٤.

التعريف بالخلاف الفقهي وجذوره وأسبابه ومدى مشروعيته وشروطه، وآدابه:-

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: التعريف بالخلاف الفقهي في اللغة والاصطلاح:-

الخلاف في اللغة:-

قال ابن فارس: "الخاء والفاء واللام أصول ثلاثة: أحدها: أن يجيء شيء بعد شيء يقوم

مقامه، والثاني: خلاف قدام والثالث: التغير.^(١)

والأصل الأول هو المقصود هنا، كقولك: اختلف الناس في كذا، فهم مختلفون لأن

كل واحد منهم ينحى قول صاحبه ويقيم قوله مكان الذي نحاه، والمتأمل في الأصل الثاني

والثالث يجد أنهما ترجع إلى الأصل الأول.

وجاء في لسان العرب: "والخلاف: المضادة، وفي الحديث: لما أسلم سعيد بن زيد قال له

بعض أهله: إني لأحسبك خالفة بني عدي، أي كثير الخلاف لهم^(٢)، وفي القاموس المحيط:

"والخلاف: المضادة .. واختلف ضد اتفق"^(٣)

وفي المصباح المنير: "وخالفته مخالفة وخلافاً، وتخالف القوم، اختلفوا إذا ذهب كل واحد إلى

خلاف ما ذهب إليه الآخر، وهو ضد الاتفاق، والاسم الخلف بضم الخاء.^(٤)"

فتبين مما سبق أن مادة "خلف" في لغة العرب تعني المضادة وعدم الاتفاق وذلك بأن يأخذ كل

واحد طريقاً غير طريق الآخر سواء في الأقوال أو الأفعال.

وفي الاصطلاح:-

قال الجرجاني: الخلاف: منازعة تجري بين المتعارضين؛ لتحقيق حق أو إبطال باطل^(٥).

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٢/٢١٠) مادة خلف.

(٢) لسان العرب لابن منظور (٩/٨٢) مادة خلف.

(٣) القاموس المحيط للفيروزآبادي (٣/١٨٣) مادة خلف.

(٤) المصباح المنير للفيومي ص ٩٥ مادة خلف.

(٥) التعريفات للجرجاني ص ١٣٥.

والناظر في المعنى اللغوي للخلاف والمعنى الاصطلاحي له، يجد بينهما تطابقاً في المعنى، إذا كل منهما يحمل معنى عدم الاتفاق وذهاب كل برأيه (١).

تعريف الخلاف كعلم وفن:-

ما سبق ذكره هو تعريف للخلاف من حيث التصور والوقوع، أما تعريف الخلاف كفن له كتب ومصنفات فعرفه ابن أمير الحاج بأنه: "علم يتوصل به إلى حفظ الأحكام المستنبطة المختلف فيها بين الأئمة أو هدمها لا استنباطها، ومنه علم الجدل، فإنه علم بقواعد يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه (٢)".

وعرفه ابن بدران في المدخل فقال: "أما فن الخلاف: فهو علم يعرف به كيفية إيراد الحجج الشرعية، ودفع الشبه وقوادح الخلافية بإيراد البراهين القطعية (٣)".

الفرق بين الخلاف والاختلاف:-

اختلف العلماء في ذلك على قولين: القول الأول: يرى جمهور العلماء أنه لا فرق بين اللفظتين، وأن الخلاف والاختلاف معناهما واحد، واستدلوا لذلك بأمرين: أحدهما: اتفاق معاجم اللغة على جعل مادة (خَلَفَ) الثلاثية أصلاً لمجردها ومزيدها، وأنها من المشترك اللفظي.

ثانيهما: استخدام علماء الشريعة - فقهاء ومحدثين وغيرهم - للفظين في المعنى نفسه دون تنبيه على وجود فرق بينهما، ولو كان هنالك فرق بينهما عندهم لذكروه، والأصل العدم، مما يدل على أن اللفظين عندهم مترادفان (٤).

القول الثاني: يرى بعض علماء الحنفية أن هناك فرقاً بين اللفظتين، فالخلاف عندهم: يستعمل فيما لا دليل عليه، والاختلاف: يستعمل في قول بني على دليل، ومثاله عندهم: أن مخالفة

(١) التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ٤٢/١، والأحكام لابن حزم (٤٧/١).

(٢) التقرير والتحرير لابن أمير الحاج (٣٥/١).

(٣) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد لابن بدران ص ٢٣١.

(٤) الخلاف في الشريعة الإسلامية للدكتور عبد الكريم زيدان ص ٢٧٤.

الإجماع تسمى خلافاً لا اختلافاً، وهذا التفريق إنما هو تفريق عرفي كما ذكر ذلك ابن عابدين في حاشيته.

وقال العيني: "والفرق بينهما أن الاختلاف أن يكون الطريق مختلفاً والمقصد واحداً، كخلاف الشافعي رحمه الله، والخلاف هو أن يكون الطريق مختلفاً والمقصد مختلفاً فافهم فإنه دقيق." (١) والراجح:

هو القول بعدم التفريق بين الخلاف والاختلاف؛ وذلك لعدم وجود الفرق بينهما في لغة العرب، ولكثرة استعمالهما من العلماء بدون تفريق، ولأن الشارع الحكيم ذكر في كتابه الكريم الاختلاف فيما لا دليل عليه كمخالفة أهل الكتاب والمشركين.

قال ابن عابدين في معرض نقده للقول الثاني: "وهذه تفرقة عرفية، وإلا فقد قال تعالى: {وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} (٢)، {وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ} (٣)، ولا دليل لهم." (٤)

المطلب الثاني: جذوره وأسبابه:-

أولاً:- جذوره:-

اختلاف الآراء ظاهرة طبيعية؛ لاختلاف الأغراض والطبائع، يتضح ذلك في عادات الناس وأعرافهم.

وكل أمر يستقل به البشر يظهر فيه الاختلاف، وهذا ما سلمت منه الشريعة الإسلامية في أصولها عامة: عقائد وعبادات ومعاملات، وما حدث من الخلاف، فإنما هو راجع للمجتهدين واختلاف أنظارتهم، وتطبيقهم النصوص إلى الوقائع.

(١) الهداية شرح بداية المبتدي للمرغيناني (١٠٧/٣)، البناية شرح الهداية للعيني (٥١/٩).

(٢) سورة البقرة الآية (٢١٣).

(٣) سورة آل عمران الآية (١٩).

(٤) حاشية ابن عابدين (٣٣١/٤).

ولم يكن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر للخلاف؛ لأنه مرجع الكل، ويتلقى شرع الله بنزول الوحي، حتى توفي صلى الله عليه وسلم بعد أن أكمل دين الله، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالة ربه إلى الناس، وتركهم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانتهاء وحي الرسالة المحمدية، وكمال شريعة الله، انتهت مقاليد الأمور إلى الصحابة رضوان الله عليهم.

وكان بينهم خلاف في بعض المسائل الاجتهادية، لاختلاف نظرهم وعلمهم بالشرعية الإسلامية، وما تهدف إليه، مثل: مسألة الإمامة ومن الأحق بها، و قتال مانعي الزكاة، وأمر فذك، والتوارث عن النبي صلى الله عليه وسلم، وتوالى الاختلاف في مسائل اجتهادية بعد ذلك، إلا أن اختلاف الصحابة أقل من اختلاف من أتى بعدهم.

ثانياً: أسبابه:-

من أهم الأسباب التي أدت إلى الاختلاف بين الفقهاء ما يأتي:

السبب الأول: ألا يكون الحديث قد بلغه:-

لم يكن الصحابة رضي الله عنهم ولا من أتى بعدهم من الفقهاء على درجة واحدة من الاطلاع على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل، بل كانوا على درجات متفاوتة، وكان لهذا التفاوت في الاطلاع على الحديث أثر كبير في الاختلاف في كثير من المسائل الفقهية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: ومن لم يبلغه الحديث لم يكلف أن يكون عالماً بموجبه، وإذا لم يكن قد بلغه وقد قال في تلك القضية بموجب ظاهر آية أو حديث آخر، أو بموجب قياس، أو موجب استصحاب: فقد يوافق ذلك الحديث تارة ويخالفه أخرى، وهذا السبب هو الغالب على أكثر ما يوجد من أقوال السلف بخالفا لبعض الأحاديث^(١)، ومثاله ما أخرجه مسلم: "بلغ عائشة رضي الله عنها أن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يأمر النساء إذا اغتسلن أن ينقضن رؤوسهن، فقالت: يا عجباً لابن عمرو هذا يأمر النساء إذا اغتسلن أن

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام ١٠/١ الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، لبنان.

ينقضن رؤوسهن، أفلا يأمرهن أن يحلقن رؤوسهن؟ لقد كنت اغتسل أنا ورسول الله من إناء واحد، ولا أزيد على أن أفرغ على رأسي ثلاث إفراغات" (١)، فابن عمرو رضي الله عنه لم يبلغه الحديث فأفتى بخلافه.

السبب الثاني: اختلاف القراءات:-

فقد ترد عن الرسول صلى الله عليه وسلم قراءات بطرق متواترة، فيكون ورودها سبباً للاختلاف في الأحكام المستنبطة، فمن ذلك المثال التالي : قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ (٢)، قرأ حمزة والكسائي: «أو لمستم» (بغير ألف) وقرأ الباقر «أو لامستم» (بألف) فكان اختلاف القراءة سبباً في الاختلاف بين الفقهاء هل هو الجماع أو اللمس باليد، فقد روى ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى عن طائفة أنه الجماع، وروى عن آخرين أنه اللمس باليد (٣)، فمن قرأ «لامستم» بألف قال: إنه الجماع ومن قرأ «أو لمستم» بغير ألف، قال: إنه اللمس باليد.

السبب الثالث: التفاوت في فهم النصوص عند التطبيق:-

وقعت أمثلة عملية في زمن النبي صلى الله عليه وسلم تؤكد وقوع الخلاف نتيجة تفاوت الأفهام والمدارك والعقول، كما في حادثة صلاة العصر في بني قريظة فقد قبلت ممن صلى بعد خروج الوقت بحسب فهمه ولم ينكر عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك، روى الإمام البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَنَا لَمَّا رَجَعَ مِنَ الْأَحْزَابِ: "لَا يُصَلِّينَ أَحَدُ الْعَصْرِ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ، فَأَذْرَكَ بَعْضُهُمُ الْعَصْرَ فِي الطَّرِيقِ فَقَالَ

(١) رواه مسلم في كتاب الحيض، باب حكم ضفائر المغتسلة ٢٦٠/١ برقم (٣٣١).

(٢) سورة النساء الآية : (٤٣).

(٣) تفسير الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن ٣٩٠/٨ الناشر : مؤسسة الرسالة - بيروت - ط ١٤٢٠ هـ

بَعْضُهُمْ: لَا نُصَلِّي حَتَّى نَأْتِيَهَا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ نُصَلِّي لَمْ يُرَدْ مِنَّا ذَلِكَ فَذُكِرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يُعْتَفَ وَاحِدًا مِنْهُمْ^(١).

السبب الرابع: الاشتراك في اللفظ:-

اللفظ العربي عدة أقسام من حيث الدلالة على المعنى منها «المشترك» وهو اللفظ الموضوع لكل واحد من معنيين فأكثر، كالعين، والظهر، وغيرهما، والاشتراك يقع في الأسماء كما في الألفاظ، ويقع في الأفعال مثل "عسعس"، فإنها تطلق على أقبل وعلى أدبر، ومثل "قضى" فإنها تطلق بمعنى حكم وبمعنى أمر وحتم، ويقع الاشتراك في الحروف، ولقد استعمل القرآن الكريم والسنة المطهرة ألفاظاً مشتركة فكان ذلك سبباً من أسباب الاختلاف بين الفقهاء، كاختلافهم في عدة الحائض المطلقة هل هي بالحيض أو بالطهر وذلك بسبب التعبير بلفظ «القرء» في قوله تعالى: {وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ^(٢)، فمن العرب من يسمي الحيض قرءاً، ومنهم من يسمي الطهر قرءاً، ومنهم من يجمعهما جميعاً فيسمي الطهر مع الحيض قرءاً^(٣).

السبب الخامس: الاختلاف في حجية بعض مصادر التشريع:-

وذلك عند عدم وجود النص القاطع من كتاب الله أو حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهناك أدلة اختلفوا في مدى الاعتماد عليها: كالاستحسان، والمصالح المرسله، وقول الصحابي، وعمل أهل المدينة، إلى غير ذلك مما هو مبسوط في كتب أصول الفقه.

السبب السادس: الاختلاف في طرق الجمع والترجيح بين النصوص أو الأدلة المتعارضة:-

وعلى فرض الاتفاق بين العلماء على ثبوت النص وفهمه، يأتي اعتراض آخر: وهو سلامة النص من معارض راجح في الظاهر من النصوص الأخرى، وهنا يقع الاختلاف بين طرق الجمع بين النصوص، أو ترجيح بعضها على بعض، وللفادة فإنه إذا تعارض دليلان فهناك عدة طرق للجمع بينهما: كالعام والخاص، والمطلق والمقيد، والناسخ والمنسوخ ... وغيرها،

(١) واه الإمام البخاري في صلاة الخوف (٩٤٦) وفي المغازي (٤١٩) ومسلم في الجهاد (١٧٧٠).

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٢٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١١٣/٣ الناشر: دار عالم الكتب - الرياض - ١٤٢٣ هـ.

فإذا تعارض دليلان وكان العالمان غير متفقان على كيفية الجمع بينهما فسيختلف الحكم الشرعي، كالاختلاف في حكم استقبال القبلة ببول أو غائط، إذ ورد فيها أدلة متعارضة: فالمثال على ذلك حديث أبي أيوب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أتيتم الغائط فلا تستقبلوا القبلة بغائط ولا بول، ولكن شرقوا أو غربوا" فقدمنا الشام فوجدنا مراحيض قد بنيت قبل القبلة، فكنا ننحرف عنها ونستغفر الله^(١).

ويتعارض مع حديث عبد الله بن عمر قال: "ارتقيت فوق بيت حفصة لبعض حاجتي فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضي حاجته مستدبر القبلة مستقبل الشام^(٢)"، فاختلف الفقهاء إلى أقوال:-

القول الأول: الجمع بين الحديثين: فحديث أبي أيوب يُحمل على أن النهي إن كان في الصحاري وليس هناك بنیان بينه وبين القبلة، أمّا حديث عبد الله بن عمر فهو جواز استقبال القبلة أو استدبارها إذا كان في بنیان، ولعله هو الأقرب للصحة والله أعلم^(٣).

القول الثاني: ترجيح العمل بحديث أبي أيوب بناءً على أن المنع والتحريم مُقدّم على الإباحة عند التعارض.

القول الثالث: ترجيح العمل بحديث عبد الله بن عمر بناءً على أنه عند التعارض ووجود الشك يبقى الحكم على الأصل وهو عدم التحريم^(٤).

المطلب الثالث: مشروعيته:-

من الأمور التي استقرت في التراث العلمي والفقهية، جواز الاختلاف في فروع الأحكام الشرعية عقلاً وشرعاً، وأدل دليل على جوازه عقلاً: وقوعه، وأدل دليل على جوازه شرعاً: وقوعه من أعلام الأمة وأفضلها بعد أنبياء الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، وهم

(١) متفق عليه، رواه البخاري في أبواب القبلة باب قبلة أهل المدينة (٣٨٦)، ورواه مسلم في الطهارة باب الاستطابة (٢٦٤)، ورواه أبو داود في الطهارة باب كراهة استقبال القبلة (٩).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري في أبواب الخمس (٢٩٣٥) باب ما جاء في بيوت أزواج النبي، ورواه مسلم في كتاب الطهارة (٢٦٦).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥٥/٣ الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

(٤) سبل السلام للصنعاني ٧٩/١ الناشر: مكتبة مصطفى الباوي الحلبي ط ٤ ١٣٧٩ هـ.

الصحابة رضوان الله عليهم وفيهم: أبو بكر وعمر وبقية الخلفاء الراشدين وبقية العشرة المبشرين وفقهاء الصحابة وعلمائهم بكتاب الله تعالى: كأبي بن كعب، وابن عباس، وابن مسعود...، كما حدث في قصة أمر النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة في بني قريضة، وقد مر^(١)، وهكذا من بعدهم من التابعين وتابعيهم إلى يومنا هذا، بل كان عظماء رجالات السلف ينظرون إلى اختلاف الأئمة أنه توسعة من الله تعالى ورحمة منه بعباده المكلفين غير القادرين بأنفسهم على استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها الأساسية^(٢)، روى الدارمي في مقدمة سننه عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود^(٣) رضي الله عنه في باب: اختلاف الفقهاء، أنه قال: "ما أحب أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا، فإنهم لو اجتمعوا على شيء فتركه رجل، ترك السنة ولو اختلفوا فأخذ رجل بقول أحد، أخذ بالسنة"^(٤).

المطلب الرابع: شروطه وآدابه:-

للتعامل مع المخالفين شروط وآداب قررها أهل العلم ويمكن من خلال النظر في النصوص الشرعية وأقوال أهل العلم استلهاهم جملة منها^(٥).
أولاً: الإنصاف مع المخالف:-

فإن الاختلاف في الرأي لا يمكن أن يكون مؤدياً إلى فتنة، أو مورثاً لفرقة إلا إذا صاحبه بغي أو هوى كما قال تعالى: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}^(٦) قال ابن تيمية: (وهذه الآية نزلت بسبب بغضهم

(١) سبق تخريجه ص ٤٤.

(٢) أدب الاختلاف في مسائل العلم لمحمد عوامة ص ٥٨ الناشر دار قرطبة ط، ٣، ١٤٢٨ هـ.

(٣) عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي: خطيب، راوية، نسابة، شاعر. كان من آدب أهل المدينة. وسكن الكوفة فاشتهر فيها بالعبادة، وصحب عمر ابن عبد العزيز في خلافته توفي سنة ١١٥ هـ انظر تهذيب التهذيب ٨: ١٧١ وحلية الأولياء ٤: ٢٤٠.

(٤) مقدمة سنن الدارمي ١/١٥١ الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت - ط ١، ١٤٠٧ هـ.

(٥) من أدب الخلاف و التعامل مع المخالف بحث للدكتور. هادي بن عبد الله بن محمد الجبير.

(٦) سورة المائدة الآية رقم (٨).

للكفار، وهو بغضٌ مأمور به، فإن كان البغض الذي أمر الله به قد نهي صاحبه أن يظلم من أبغضه، فكيف في بغض مسلم بتأويل وشبهة أو بهوى نفس فهو أحق أن لا يظلم^(١).

وإذا أنصف الإنسان حملة إنصافه على أن يعرف قدر الخطأ، فلا يعطيه أكبر من حقه، كما لا ينسى سابقة قائله وظروفه التي حملته على فعله، ولا يغيب عنك فعل حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه، وكيف أن عقوبته منع من ترتبها عليه مشهده العظيم يوم بدر، قال ابن القيم: (من قواعد الشرع والحكمة أن من كثرت حسناته وعظمت وكان له في الإسلام تأثير ظاهر فإنه يحتمل منه ما لا يحتمل من غيره ويعفى عنه ما لا يعفى من غيره فإن المعصية خبث والماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث .. وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم أن من له ألوف الحسنات فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين)^(٢).

ثانياً: مراعاة المصالح والمفاسد:-

إن من قواعد الشريعة تحمل أدنى المفسد يكن لدرء أعلاهما، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يرى بمكة أكبر المنكرات وأكبر الأصنام ولا يغيرها، وترك المنافقين ولم يقتلهم مع ثبوت كفرهم "لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه"^(٣).

والتعامل مع كل من مخالف منوط بهذه القاعدة ، فلا يسوغ الرد عليه إذا ترتب على ذلك مفسدة أكبر، وقد نهي الله تعالى عن سب آلهة المشركين لما ترتب على ذلك مفسدة أعظم من ملحمة سبها، قال تعالى: {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} ^(٤)، قال ابن القيم: (إن النبي صلى الله عليه وسلم شرع لأُمَّته إيجاب إنكار المنكر ليحل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه

(١) منهاج السنة النبوية ١٢٧/٥ الناشر: مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى.

(٢) مفتاح دار السعادة ١٧٧/١. دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

(٣) البخاري/ باب قوله {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُؤُوسَهُمْ وَرَأَتْهُمُ بِصُدُونٍ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ}، حديث رقم ٤٩٠٤، ومسلم/ باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً. حديث رقم ٦٧٤٨.

(٤) سورة الأنعام الآية ١٠٨.

وأبغض إلى الله ورسوله، فإنه لا يسوغ إنكاره وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله^(١). وفي امتناع النبي صلى الله عليه وسلم عن هدم الكعبة شاهد ظاهر لهذا.

ومراعاة المصالح والمفاسد يتضمن ملاحظة الوقت الذي يعيشه الإنسان، وهل سيتعلق بكلامه أهل الفساد ليكون ذريعة لمآرب سيئة وهل سيفهم على وجهه أم لا. وذلك كله مبني على قاعدة كبرى، وهي أن الأعمال الشرعية ليست مقصودة لنفسها وإنما قصدت المصالح المترتبة عليها.

ثالثاً: التثبيت:-

الاستعجال في إصدار الأحكام تصرف يوقع صاحبه في الزلل والخطأ، ولذا جاء الشرع بالأمر بالتثبت والتبيين كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} ^(٢).

والمراد بالتبيين: التعرف والتبصر والأناة وعدم العجلة حتى يتضح الأمر ويظهر، وهذا يحصل في النقل والمنقول، فأما النقل فبالتحقق من صدق الناقل وسلامته.

وأما المنقول فلا بد أن يتثبت الناقل أن المنقول لا وجه له في الصحة يقتضي قبوله وهذا ما سبق في فهم كلام المتكلم وحقيقة مراده.

رابعاً: لزوم آداب الشرع:-

فإن في سلوك آداب الشرع تخلصاً من آثار الخلاف السيئة، ومنعاً لتضخمها وهذه الآداب كثيرة، منها:-

١- إحسان الظن بالمخالف فقد أمرنا الله بذلك قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} ^(٣) وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً) ^(٤).

(١) اعلام الموقعين ٤/٣ .

(٢) (سورة الحجرات الآية رقم (٦)).

(٣) (سورة الحجرات الآية رقم (١٢)).

(٤) الدر المنثور للسيوطي ٦ / ١٩٩ الناشر دار الفكر - بيروت.

وأبغض إلى الله ورسوله، فإنه لا يسوغ إنكاره وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله^(١). وفي امتناع النبي صلى الله عليه وسلم عن هدم الكعبة شاهد ظاهر لهذا.

ومراعاة المصالح والمفاسد يتضمن ملاحظة الوقت الذي يعيشه الإنسان، وهل سيتعلق بكلامه أهل الفساد ليكون ذريعة لمآرب سيئة وهل سيفهم على وجهه أم لا. وذلك كله مبني على قاعدة كبرى، وهي أن الأعمال الشرعية ليست مقصودة لنفسها وإنما قصدت المصالح المترتبة عليها.

ثالثاً: التثبيت:-

الاستعجال في إصدار الأحكام تصرف يوقع صاحبه في الزلل والخطأ، ولذا جاء الشرع بالأمر بالتثبيت والتبيين كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ} (٢).

والمراد بالتبيين: التعرف والتبصر والأناة وعدم العجلة حتى يتضح الأمر ويظهر، وهذا يحصل في النقل والمنقول، فأما النقل فبالتحقق من صدق الناقل وسلامته.

وأما المنقول فلا بد أن يتثبت الناقل أن المنقول لا وجه له في الصحة يقتضي قبوله وهذا ما سبق في فهم كلام المتكلم وحقيقة مراده.

رابعاً: لزوم آداب الشرع:-

فإن في سلوك آداب الشرع تخلصاً من آثار الخلاف السيئة، ومنعاً لتضخمها وهذه الآداب كثيرة، منها:-

١- إحسان الظن بالمخالف فقد أمرنا الله بذلك قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا

كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ} (٣) وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (لا تظنن

بكلمة خرجت من أخيك المؤمن شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً) (٤).

(١) اعلام الموقعين ٤/٣ .

(٢) سورة الحجرات الآية رقم (٦).

(٣) سورة الحجرات الآية رقم (١٢).

(٤) الدر المنثور للسيوطي ٦ / ٩٩ الناشر دار الفكر - بيروت.

٢- ومنها الخضوع للحق ولو نطق به الخصم، كما قال الشافعي: ما ناظرت أحداً إلا قلت:

اللهم أجر الحق على قلبه ولسانه، فإن كان الحق معي اتبعني، وإن كان الحق معه اتبعته^(١).

٣- الستر على المخطئ، فقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على الستر فقال: "ومن ستر

مسلماً ستره الله يوم القيامة"^(٢)، ومن هذا أن يبين الخطأ دون التعرض لشخص المخطئ وهذا

نحج أثري منقول في قول المصطفى صلى الله عليه وسلم في كثير من الأحوال، "ما بال

أقوام"^(٣).

(١) قواعد الأحكام للعز بن عبد السلام ٢ / ١٧٦ . الناشر : دار المعارف بيروت - لبنان.

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري في باب: لا يظلم المسلم المسلم رقم (٢٣١٠) وأخرجه مسلم في البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم رقم

(٢٥٨٠).

(٣) هذا اللفظ ورد في عدة أحاديث وفي عدة مواضع مختلفة منها ما رواه البخاري في باب ذكر البيع والشراء على المنبر في المسجد (٤٥٦)،

وفي باب رفع البصر إلى السماء في الصلاة (٧٥٠)، ومسلم في باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، (١٤٠١).

الفصل الأول:

الخلافاً التي ذكرها المؤلف في باب "العدد"

وفيه تسعة مباحث:-

المبحث الأول: تعريف العدد:-

العدة لغة:-

العدة بكسر العين جمعها عدد، وهي مأخوذة من العد والإحصاء لاشتغالها على عدد الأقرء^(١) أو الأشهر غالباً، يقال عددت الشيء إذا أحصيته إحصاء، كما تطلق العدة على المعداد أيضاً، فيقال عدة المرأة أي أيام أقرائها، وعدتها أيضاً أيام إحدادها على بعلها أو إمساكها عن الزينة، وسميت هذه المدة عدة لأن المرأة تعدها^(٢) قال ابن منظور^(٣): وعدة المرأة أيام قروئها، وعدتها أيضاً أيام إحدادها على بعلها، وإمساكها عن الزينة شهوراً كان، أو أقرء، أو وضع حمل وجمع عدة عدد. واصل ذلك كله من العد^(٤).

تعريف العدة في اصطلاح الفقهاء:-

عرفها الحنفية بأنها:

تربص المرأة عند زوال النكاح المتأكد بالدخول، أو ما يقوم مقامه من الخلوة والموت، والمراد بالتربص الانتظار أي انتظار انقضاء العدة بالتزوج^(٥).

(١) الأقرء: جمع قرء، وتجمع على قروء وأقرؤ، وهو من الألفاظ المشتركة التي استعملها العرب، فيقال أقرأت المرأة (حاضت) وأقرأت (طهرت)، وقيل هو حقيقة في الحيض ومجاز في الطهر، وقيل العكس، ويقال للحيض والطهر قرءاً لأن لكل واحد منهما له وقت معلوم، وقيل: القرء الخروج إما من حيض إلى طهر أو من طهر إلى حيض، انظر لسان العرب ١٢٦/١ - تاج العروس ١٠١/١ أما الأقرء في الاصطلاح: فقد اختلف العلماء فيها فقال مالك والشافعي: إنها الأطهار وقال أبو حنيفة: هي الحيض واختلفت الرواية عن أحمد (بداية المجتهد ٧١/٢).

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي ٩٧/٤ دار الفكر بيروت ١٤١٤ - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير لأحمد بن محمد الفيومي ٤٤/١.

(٣) محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفي الأفرقي، صاحب (لسان العرب): الإمام اللغوي الحجة، ولد بمصر، وقد ترك بخطه نحو خمسمائة مجلد، وعمي في آخر عمره، قال ابن حجر: "كان مغرماً باختصار كتب الأدب المطولة"، وقال الصفيدي: "لا أعرف في كتب الأدب شيئاً إلا وقد اختصره"، أشهر كتبه (لسان العرب) عشرون مجلداً، جمع فيه أمهات كتب اللغة، فكاد يغني عنها جميعاً، (فوات الوفيات ٢: ٢٦٥ والدرر الكامنة ٢٦٢: ٤).

(٤) لسان العرب لمحمد بن مكرم المعروف بابن منظور ٢٨١/٣ الناشر دار الفكر بيروت ١٤١٤هـ.

(٥) "فتح القدير" لكمال الدين ابن الهمام ١٣٥/٤ - دار إحياء التراث بيروت.